

موسى بن نصير

مؤسس المغرب العربي

بقلم

الدكتور إبراهيم أحمد العدوي

دار
المكتبات
العربية
للطباعة
والنشر

أغسطس ١٩٦٧

أعلام العرب

٦٨

موسى بن نصير

مؤسس المغرب العربي

دار

الكاتب
العربي
للطباعة
والنشر

بقلم

الدكتور إبراهيم أحمد العدوي

تمثل سيرة موسى بن نصير اصرار الأمة العربية الجبار على التغلب على ما يعترضها من أزمات وخطوب ، وقدرتها الهائلة في الصمود أمام كيد الأعداء ، ثم الانطلاق الرائع نحو المجد والسؤدد ، في عزم ثابت وإيمان صادق متين . فقد تصدى للفتوح العربية في شمال إفريقيا ، قبل أن يظهر موسى بن نصير على مسرح الأحداث ، أعظم قوة في العالم اذ ذاك ، وهي امبراطورية الروم ، التي أفرغت كل ما لديها من بطش وكيد ودس للحيلولة دون تحرير العرب لتلك الأرجاء ، وحرمان العرب أيضا من ثمار جهادهم وكفاحهم هناك بأساليب تستهدف بث اليأس والقنوط في النفوس .

غير أن الأمة العربية لم تلبث أن أنجبت موسى ابن نصير ، الذي استطاع بفضل ما انطوت عليه نفسه من روح عربية أصيلة أن يحيل عشرات الجيوش العربية الى انتصارات مظفرة متلاحقة ، وأن يطرد الروم ، أعداء العرب الألداء ، نهائيا من شمال إفريقيا ، ويترك لمن ورائه من أجيال الأمة العربية نموذجا رائعا في الكفاح والنضال ، يستمدون منه كل أسباب ثقة النفس بالنفس ، والتطلع دائماً وأبدا الى المستقبل ، بعين ملؤها التفاؤل ، والإيمان الصادق بغد مشرق بهيج .

وتعرض الصفحات التالية جهاد موسى بن نصير في سبيل اعلاء كلمة العروبة والإسلام في ركن من أهم أركان

العالم ، وهو غرب البحر المتوسط ، حيث وضع
الأساس المتين هناك لأهم مركز من مراكز الاشعاع
الحضارى فى العالم . فاستطاع موسى بن نصير ، بفضل
ما تحلى به من مواهب عالية فى فن القيادة والسياسة
والادارة ، أن يضم شمال أفريقيا الى رقعة الاسلام ،
وأن يجعل من أهلها فى سرعة مذهشة ((الجناح
اليسر للاسلام)) ثم أثبت موسى بن نصير جدارة فريدة
على رعاية هذا الوليد الجديد وتدريبه ، حتى شب عن
الطوق ، وجعل المغرب العربى يبرهن عمليا أنه أصبح
منذ صدر شبابه عضوا فعالا فى أسرة العروبة ، وتقاسم
مع أبنائها شرف حمل راية الاسلام ، واعزاز كلمته ،
وحماية أرض العروبة ومقدساتها .

ومن يمن الطالع أن تصدر هذه السيرة الخاصة
بموسى بن نصير فى الوقت الذى انطلقت فيه الجزائر
الفتية ، مع جميع العرب من المحيط الى الخليج ،
للتصدى للعدوان الثلاثى الجديد على الأمة العربية ،
لتعيد بتضامنها مع القوى العربية ، الأمة العربية الى
سيرتها الاولى العطرة ، الحافلة بالبطولات والأمجاد .

ابراهيم أحمد العدوى

« الحرب خدعة » . فكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا غزا أخذ طريقا وهو يريد أخرى ، ويقول : ان الحرب خدعة . وحرص الرسول الكريم على أن يعهد بقيادة الجيش لمن تتوافر له تلك الخبرة ، فقد أثر عنه قوله عليه الصلاة والسلام : « انى لأؤمر الرجل على القوم وفيهم من هو خير منه ، لأنه أيقظ عيننا وأبصر بالحرب » .

ودأب قادة القرن الأول الهجرى على السير وفق هذه القاعدة والحصول على أعلى درجة في المؤهل المطلوب لها . فكان بعضهم يقف بين الجند قبل الهجوم ، فيحمد الله ويشنى عليه ، ثم يقول : انى أسير بالغداة فى طريق كذا ، ويقصد بذلك تضليل جواسيس الأعداء ، فإذا أصبح سلك بالجند طريقا غير ما سماه ، ويروغ من الجواسيس كما يروغ الثعلب . وارتبط بهذه الخبرة وبمكايد الحروب ركوب الخيل والقدرة على استعمال آلات القتال المعروفة اذ ذاك ، وبخاصة اعادة القتال بالسيف والرمح والنشاب .

ثانيا : القدرة على اعداد الجند ، وذلك وفق التعليمات التالية :

(١) التحقق من السلامة الجسمانية أو اللياقة البدنية ، واجادة استخدام الأسلحة المعروفة .

(ب) تفقد الجيش ومن فيه ، وابعاد من يبدو عليه الخسوف والخللان ، أو من يشك فى سلوكه أو الجهة التى ينتمى اليها .

(ج) ألا يمالئ القائد شخصا ممن يعمل تحت امرته بسبب القرابة أو النسب الرفيع ، لأن ذلك يوقع الشقاق بين الجند ويفسد سيرهم للقتال .

(د) الرفق بالجند فى أثناء السير ، « فلا يجد السير فيهلك الضعيف ويستفرغ جلد القوى » .

(هـ) أن يجعل لكل طائفة من الجند شعارا يتداعون به ، ليصيروا به متميزين .

وتركوا وراءهم نماذج تحتذى في فن القيادة ، وتجارب رائعة في إدارة البلاد وتدير شئونها .

وتخرجت الفرقة الثانية من كبار القادة العرب في عهد الدولة الأموية ، وضمت من الأسماء اللامعة : مسلم بن قتيبة الباهلي الذي فتح بلاد ما وراء النهر (نهر سيحون وجيحون) ونشر الدين الاسلامي في تلك الأرجاء النائية ، ومحمد بن القاسم الثقفي الذي اشتهر بفتوحه الباهرة في اقليم السند من بلاد الهند واعلاء كلمة الاسلام هناك ، ومسلمة بن عبد الملك الذي قاد الجيوش والأساطيل العربية في حصار القسطنطينية عاصمة دولة الروم وأضعف قوتها وهد من كيائها وعدائها التقليدي للمسلمين ، ومن هؤلاء قادة الفتوح العربية في شمال أفريقيا ، وهم عقبة بن نافع الفهري ، وزهير ابن قيس البلوي ، وحسان بن النعمان ، الذين نقلوا راية الجهاد في تلك الأرجاء الى موسى بن نصير ، وتركوا له تثبيت أقدام العروبة والاسلام هناك ، على هدى ما توافر له من مؤهلات انفراد بالحصول عليها بدرجة الامتياز من مدرسة القادة العظام .

وتعلم موسى بن نصير في تلك المدرسة أن القيادة لم تعد وقفا - كما كانت قبل الاسلام - على شيوخ القبائل أو أسر معينة ، بل صارت مفتوحة أمام الجميع دون التقييد بالسن ، لكن بشرط توافر أمرين أساسيين ، أولهما اكتساب خصال الفروسية ، وثانيهما التحلي بصفات الزعامة . أما خصال الفروسية فلم تعد مجرد الخبرة بالكر والفر في القتال - كما كان الحال في العصر الجاهلي - ولكن غدت فنا عاليا حددت مدرسة القادة العظام قواعده ، واحكمت مناهجه وأساليب العمل به . فأصبح على المرشح للمناصب القيادية الحصول على المؤهلات التالية ليشق طريقه الى المجد وخلود الذكر :

أولا : الخبرة التامة بمكايد الحروب ، اذ جرى العرف على أن

« الحرب خدعة » . فكان النبي صلى الله عليه وسلم اذا غزا أخذ طريقا وهو يريد أخرى ، ويقول : ان الحرب خدعة . وحرص الرسول الكريم على أن يعهد بقيادة الجيش لمن تتوافر له تلك الخبرة ، فقد أثر عنه قوله عليه الصلاة والسلام : « انى لأؤمر الرجل على القوم وفيهم من هو خير منه ، لأنه أيقظ عينا وأبصر بالحرب » .

ودأب قادة القرن الأول الهجرى على السير وفق هذه القاعدة والحصول على أعلى درجة فى المؤهل المطلوب لها . فكان بعضهم يقف بين الجند قبل الهجوم ، فيحمد الله ويشئى عليه ، ثم يقول : انى أسير الغداة فى طريق كذا ، ويقصد بذلك تضليل جواسيس الأعداء ، فاذا أصبح سلك بالجند طريقا غير ما سماه ، ويروغ من الجواسيس كما يروغ الثعلب . وارتبط بهذه الخبرة وبمكايد الحروب ركوب الخيل والقدرة على استعمال آلات القتال المعروفة اذ ذاك ، وبخاصة اجادة القتال بالسيف والرمح والنشاب .

ثانيا : القدرة على اعداد الجند ، وذلك وفق التعليمات التالية :
(١) التحقق من السلامة الجسمانية أو اللياقة البدنية ، واجادة استخدام الأسلحة المعروفة .

(ب) تفقد الجيش ومن فيه ، وابعاد من يبدو عليه الخوف والخلدان ، أو من يشك فى سلوكه أو الجهة التى ينتمى اليها .

(ج) الا يمالئ القائد شخصا ممن يعمل تحت امرته بسبب القرابة أو النسب الرفيع ، لأن ذلك يوقع الشقاق بين الجند ويفسد سيرهم للقتال .

(د) الرفق بالجند فى اثناء السير ، « فلا يجد السير فيهلك الضعيف ويستفرغ جلد القوى » .

(هـ) أن يجعل لكل طائفة من الجند شعارا يتداعون به ، ليصيروا به متميزين .

ثالثا : الحزم في الضبط والربط ، وتنفيذ ذلك على النحو التالي :

(أ) تأمين الجيش من هجوم مفاجيء يقوم به العدو ، وذلك باخذ ما يلزم من الحراس ، وسد الثغرات والطرق التي يمكن ان يتسلل منها العدو .

(ب) اختيار ميدان القتال وتحديد الأرض التي تجرى عليها المعركة ، وذلك ليظل صاحب اليد العليا ، طليق الحركة .

(ج) المحافظة على خطوط تموين الجيش ليضمن وصول المؤن والمدد كذلك ، بما يهيئ للجند الطمأنينة والراحة ، وتدبير السلاح والعتاد في كل وقت من أوقات القتال .

(د) أن يقف على أخبار عدوه ، ويستطيع بذلك أن يأمن وقوع مكروه قد يصيب الجند .

(هـ) ترتيب الجيش ترتيبا يتفق مع الخطط الحربية ، ويدعم حلقة الاتصال بينه وبين الجند عن طريق مساعديه وحراسه .

(و) أن يعمل دائما على رفع الروح المعنوية بين الجند ، وأن يظل أمامهم دائما مثلاً أعلى يحتذى في تلك السبيل .

(ز) المحافظة على حسن سلوك الجند ، وحثهم على العمل بما أوجب الله تعالى من حقوقه ، والتزام ما أمر به من حدوده ، وذلك وفق الحديث الشريف ، فقد روى عن الرسول الكريم ، صلى الله عليه وسلم قوله : « انهوا جيوشكم عن الفساد ، فانه ما فسد جيش قط الا قذف الله في قلوبهم الرعب ، وانهوا جيوشكم عن الزنا فانه ما زنى جيش قط الا سلط الله عليهم الموتان (اى الموت الكثير الوقوع) ، وانهوا جيوشكم عن الغلول (الخيانة في المغنم) فانه ما غل جيش قط الا قذف الله الرعب في قلوبهم » .

رابعا : قوة الشكيمة عند القتال واتباع الأسلوب الكفيل بتحقيق

النصر ، كالأسلوب الذى اتخذه القادة العرب من سيرة الرسول الكريم فى غزواته ، فهو مثل يحتذى عند قتال العدو ، ومن ذلك :

(أ) نصب المجانيق والعرادات (وهى المجانيق الصغيرة) لضرب العدو فى داخل حصونه .

(ب) قطع النخل والشجر اذا كان ذلك سبيلا لهدم مقاومة العدو . فقد قطع النبى صلى الله عليه وسلم كروم أهل الطائف ، فكان سببا فى اسلامهم ، وأمر فى حرب بنى النضير (اليهود) بقطع نوع من النخيل « يقال له الأصفر ، يرى نواه من وراء اللحاء ، وكانت النخلة منها أحب اليهم من الوصيف (أى العبد) » .

(ج) يجوز للقائد أن يقطع الماء عن العدو ليحمله على الخضوع .

خامسا : تقوى الله ، فهى عماد جرأة الجنان والشجاعة . فقرة الإيمان بالله والاعتقاد الراسخ بأن الموت بيده جعل قادة العرب يندفعون فى حماسة نادرة للقتال ، واشتهروا بيمين الطالع ، وسارع الجند للسير وراءهم للقتال تملؤهم الثقة بالنصر .

وأكد الخلفاء بدورهم أهمية التمسك بخصال الفروسية فى الوصايا التى أدلوا بها لأولئك القادة العظام الذين عرفهم القرن الأول الهجرى ، وحفظوا بالتالى للفتوحات التى قاموا بها الطمأنينة والاستقرار . فجاء فى وصية الخليفة عمر بن الخطاب للقائد سعد ابن أبى وقاص نموذجا للقواعد التى تمسك بها القادة العرب طيلة القرن الأول الهجرى . ومن هذه الوصية قول الخليفة لقائده : « أما بعد فانى آمرك ومن معك بتقوى الله على كل حال ، فان تقوى الله أفضل العدة على العدو ، وأقوى المكيدة فى الحرب . وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسا من المعاصى منكم من عدوكم ، فان ذنوب الجيشن أخوف عليهم من عدوهم ..

وترفق بالمسلمين فى سيرهم ، ولا تجشمهم مسيرا يتعبهم ..

وليكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع وتبث السرايا . . واجعل أمر السرايا إلى أهل الجهاد والصبر على الجلاء ، ولا تخص بها أحدا بهوى ، فيضيع من رأيك وأمرك أكثر مما حايث من أهل خاصتك . . فاذا عاينت العدو فاضمم اليك أقاصيكم وطلائعكم وسراياكم ، واجمع اليك مكيدتك وقوتك ، ثم لا تعاجلهم المناجزة ، مالم يستكرهك قتال ، حتى تبصر عورة عدوك ومقاتله ، وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها ، فتصنع بعدوك كصنيعه بك . . والله ولي أمرك وولى النصر لكم على عدوكم ، والله المستعان .

وأوصى الخلفاء الأمويون قاداتهم بمثل ما جاء به الخليفة عمر ابن الخطاب ، فقال الخليفة عبد الملك بن مروان لأحد قاداته : « أنت تاجر الله لعباده ، فكن كالضارب الكيس الذى ان وجد ربعا تجر ، والا تحفظ برأس المال ، ولا تطلب الغنيمة حتى تحوز السلامة وكن من احتيالك على عدوك أشد حذرا من احتيال عدوك عليك » .

وجمع قادة العرب العظام فى القرن الأول الهجرى ، الى جانب خصال الفروسية السالفة الذكر صفات الزعامة الحقيقية . وتجلت تلك الصفات فى المقدرة الفائقة على الادارة والسياسة ، وتنظيم الشئون المدنية التى يتطلبها بناء الدولة العربية الاسلامية بعد استقرار الفتوح . فكان كل قائد يتحول بعد انتهاء العمليات الحربية الى رجل دولة ممتاز ، واسع الأفق ، خبير بشئون الأهالى ومطالبهم ، هذا الى تمتعه بقدر كبير من الدبلوماسية والمهارة فى تأليف القلوب وجمعها على كلمة العروبة والاسلام .

وأتاح الأحداث لموسى بن نصير ان يقف عمليا على أهمية هذه الصفات حين صاحب عبد العزيز بن مروان الذى تولى حكم مصر سنة ٦٥ هـ / ٦٨٥ م ، وصار من خلصائه المقربين اليه . فكان عبد العزيز بن مروان يسير فى ادارة شئون البلاد على هدى ما جاءه

في وصية والده له : « أي بني ، انظر الى عمالك ، فان كان لهم عندك حق غدوة فلا تؤخره الى عشية ، وان كان لهم عشية فلا تؤخره الى غدوة ، واعطهم حقوقهم عند محلها ، تستوجب بذلك الطاعة منهم . واياك أن يظهر لرعييتك منك كذب فانهم ان ظهر لهم منك كذب لم يصدقوك في الحق . واستشر جلساءك واهل العلم . . وان كان بك غضب على أحد من رعييتك فلا تؤاخذ به عند ثورة الغضب ، واحبس عنه عقوبتك حتى يسكن غضبك ، ثم يكون منك ما يكون وانت ساكن الغضب . . ثم انظر الى اهل الحسب والدين والمروءة ، فليكونوا أصحابك وجلساءك . ثم اعرف منازلهم منك على غيرهم ، على غير استرسال ولا انقباض » .

واطلع موسى بن نصير على هذا التراث الهائل وما ارتبط به من مؤهلات القيادة منذ شق طريقه الى الحياة ، وهيأت له المقادير الاسهام في نشاط مدرسة القادة العظام في القرن الأول الهجري . وقد كشف موسى بن نصير نفسه عن ايمانه الراسخ بما درس ومارس من تجارب في تلك المناقشة الطريفة التي دارت بينه وبين الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك ، الذي أراد أن يعرف سبب تفوق هذا القائد في ميدان الجهاد .

قال الخليفة لموسى : ما الذي كنت تفزع اليه في مكان حربك من أمور عدوك ؟ .

قال موسى : التوكل والدعاء الى الله يا أمير المؤمنين .

قال الخليفة لموسى : هل كنت تمتنع في الحصون والخنادق ، أو كنت تخندق حولك ؟

قال موسى : كل هذا لم أفعله .

قال الخليفة لموسى : فما كنت تفعل ؟

قال موسى : كنت أنزل السهل وأستشعر الخوف والصبر ،
وأتحصن بالسيف ، وأستعين بالله ، وأرغب
إليه في النصر .

قال الخليفة لموسى : أخبرنى ، كيف كانت الحرب بينك وبين
عدوك ، أكانت عقبى (أى يوم نصر ويوم
هزيمة) ؟ .

قال موسى : لا يا أمير المؤمنين ، ما هزمت راية لى قط ،
ولا فض لى جمع ، ولا نكب المسلمون معى
نكبة منذ اقتحمت الأربعين الى أن شارفت
الثمانين .

الفصل الثاني

أيام الصِّبا والشِّباب

الحديث الذي دار بين الخليفة سليمان بن عبد الملك وموسى بن نصير مفتاح دراسة لحياة هذا القائد المظفر ، وما تم على يديه من جليل الأعمال . فقد نخر موسى امام الخليفة بأن النصر صار معقودا بلوائه منذ دخل سن الأربعين حتى شارف الثمانين من عمره المديد ، وهي مدة لم ينعم بها قائد من قبل ولا من بعد . ولم يكن في هذا القول شيء من المبالغة لأن سنوات النصر الأربعين استندت الى سنوات مثلها من الدرس والتحصيل حافلة بالمشاهدات الفريدة والمواقف العصبية والتجارب المستفيضة . ومن ثم انطبعت أيام صبا موسى بن نصير وشبابه بطابع الكفاح المتصل واتصفت بالنشاط والجد ، وهو أمر جعله من معدن فاق به سائر أقرانه ومعاصريه من حيث الشكيمة والصلابة ، وابعده عما يمكن أن تصاب به حياة الصبا والشباب عادة من دعة أو جدة .

نشأ موسى بن نصير في أسرة عربية عريقة ، ارتبط تاريخها بامجاد الأمة العربية قبل الاسلام وبعده ، واستمد منها الكثير من مقومات الشخصية القوية والطموح العالي . فهو ينتسب الى قبيلة بكر بن وائل الربيعية التي انتشرت مضاربها في أرض الحيرة غربي

نهر الفرات قبل ظهور الاسلام ، وشاركت قريناتها من القبائل العربية هناك في الاغارة على بلاد فارس ، ومقاومة استبداد أكاسرتها ، وطفيانهم . فقادت تلك القبيلة لواء ثورة عرب العراق ضد الفرس وتصدت للقوات الفارسية في وقعة ذي قار ، وأتزلت بها هزيمة فادحة . وروى أن أنباء هذا النصر بلغت الرسول الكريم - وكان اذ ذاك بمكة قبل البعثة - وقال ما معناه : هذا أول يوم انتصف فيه العرب من العجم .

ويظهر الاسلام وقيام الفتوح العربية على عهد الخليفة أبي بكر الصديق بدأت قبيلة بكر بن وائل تنضم الى هذه الحركة التحررية الكبرى ، وأخذت أحداثها تمهد لظهور أسرة موسى بن نصير على مسرح الجهاد العربي الاسلامي . ذلك أن الخليفة أبا بكر أرسل القائد خالد بن الوليد لفتح الحيرة والعراق ، وتحرير القبائل العربية هناك من طغيان الفرس . واستطاع هذا القائد المظفر أداء مهمته في سرعة خاطفة ، وقضى على مقاومة الفرس وحلفائهم في وقعة « عين التمر » ، وهي بلدة تقع على طرف الصحراء غربي نهر الفرات ، وذلك سنة ١٢ هـ / ٦٣٢ م .

ولما اقتحم خالد حصن « عين التمر » وجد في بيعة بها أربعين غلاما ، منهم : نصير والد موسى بن نصير ، وسيرين أبو محمد ابن سيرين ، وغيرهما ، فأخذوا جميعا أسرى . وأسلم نصير غداة الأسر ، ثم انتقل الى الحجاز التي كانت اذ ذاك قلب الدولة العربية الفتية . وهناك دخل نصير في قبيلة لخم اليمنية ، وهي إحدى القبائل الكبرى بالحجاز ، وتزوج منها امرأة رزق منها ابنه موسى سنة ١٩ هـ / ٦٤٠ م في خلافة ثاني الخلفاء الراشدين ، وهو عمر ابن الخطاب .

وارتبطت نشأة موسى بن نصير بذلك بأهم فترة في تاريخ الأمة العربية ، وهي انطلاق موجة الفتوح العربية من قاعدتها الأولى بالحجاز ، ومتابعة التطور السياسي والحضاري الذي صاحب تلك

الفتوح الباهرة متابعة دقيقة مستفيضة . فسمع موسى وهو في صباه سيرة خالد بن الوليد ، وما قام به من انتصارات باهرة ، واستمع في شوق الى والده وهو يروى جهاد هذا البطل منذ شاهده في عين التمر بالعراق حتى اتم فتح الشام . وقد توفي خالد ابن الوليد سنة ٢١ هـ / ٦٤٢ م بعد عامين من ميلاد موسى ابن نصير ، وصار والد موسى هو مصدر معلوماته الشائقة فيما بعد عن هذا الفاتح العظيم الذي شاءت الأقدار أن تربط اسمه باسم والده نصير ، وأن يجد في خالد بن الوليد أول أستاذ يستفيد منه ومن تراثه الذي خلفه لمدرسة القادة العظام في القرن الأول الهجري .

ولما شب موسى بن نصير عن الطوق وجد في المدينة المنورة ، عاصمة الدولة العربية على عهد الخلفاء الراشدين دراسات علمية قيمة ، كان لها أكبر الأثر في ثقافته وتربيته . اذ حفلت المدينة بعدد كبير من العلماء الذين كرسوا حياتهم لدراسة علوم الدين الاسلامي ، من تفسير للقرآن الكريم ، وجمع للأحاديث النبوية الشريفة . وأتاحت هذه الحركة لموسى بن نصير أن يقف على كثير من سيرة الرسول الكريم ، وبخاصة ما أثر عن نشاطه وخطته الحربية في المغازي التي قام بها في سبيل نشر الدعوة الاسلامية . ذلك أن العلماء في المدينة حين جمعوا أحاديث الرسول الكريم ودونوها أفردوا أبوابا منها للمغازي ، وذكروا فيها كل شاردة وواردة أثرت عن النبي ، حتى صارت أعماله نماذج تحتذى أمام أجيال المسلمين .

وساعد على دعم الدراسات الدينية في المدينة المنورة أن الذين تصدوا لها في أول الأمر كانوا من الصحابة ، الذين التقوا بالرسول الكريم ، ونعموا بصحبته . ثم ان أولئك الصحابة دأبوا على رواية أحاديث الرسول الكريم ، وكانوا حريصين كل الحرص على سلامتها وإبعاد الزيف عنها . وعن هؤلاء الصحابة ظهرت طبقة التابعين ، أي الذين لم يشاهدوا الرسول الكريم ، ولكن قاموا بالنقل عن

الصحابة لكل ما وعته ذاكرتهم من سيرة النبي . وسلك موسى ابن نصير في تربيته الدينية مسلك التابعين ، فقد جهد في الاشتغال بجمع الحديث من كبار الصحابة الذين كانوا اذ ذاك على قيد الحياة .

واشتهر موسى بن نصير بأنه روى الحديث عن تميم الدارى ، وهو صحابي اسلم سنة ٩ هـ ، واشتهر بكثرة التعبد والتهجد ، وملازمته للرسول الكريم في حياته . وبلغ موسى بن نصير درجة عالية في العلم والرواية لأحاديث الرسول الكريم حتى صار مصدرا ينقل عنه نفر من التابعين تلك الأحاديث . واشهر من روى عن موسى ابن نصير تابعي اسمه يزيد بن مسروق اليحصبي . وخلد موسى ابن نصير بذلك اسمه في حلقات الاسناد الخاصة برواية الحديث ، والإسهام في دعم وتنمية الدراسات الدينية في صدر الاسلام .

وكانت هذه التربية الدينية التي تلقاها موسى بن نصير منذ نعومة أظفاره سببا في أن يشب ويكبر على حب التقوى والورع ومخافة الله ، والفرع اليه في كل ما يواجهه من عظام الأمور . وظلت هذه الخصال الدينية تلازم موسى بن نصير طيلة حياته ولم يتخل عنها يوما من الأيام ، واستطاع بفضلها أن يكسب احترام معاصريه ، وكذلك كل من عمل معه في شتى الأرجاء التي جاب آفاقها . وقد سجلت إحدى الروايات هذه الصفات الحميدة التي تحلى بها موسى ابن نصير ، في هذه العبارة الموجزة البليغة : قال بعض العلماء : « ان موسى بن نصير كان عاقلا شجاعا كريما تقيا الى الله تعالى » . وبعبارة أخرى اكتسب موسى بن نصير إحدى المؤهلات المطاوعة للوصول الى مركز القيادة ، وهي التقوى ومخافة الله ، ونال درجة عالية فيها .

وارتبط بهذه الحياة الدينية ، شغف موسى بالثقافة العربية والعمل على الاستزادة منها ، ومن ينايعها الدافقة بالحجاز ، وبخاصة في أيامه الأولى بتلك الجهات . فكان الحجاز يعتبر في هذه السنوات المبكرة من القرن الأول الهجري مركزا هاما للثقافة

العربية ، يلجأ اليه الراغبون من شتى الجهات التي فتحت اذ ذاك للوقوف على جوهر اللغة العربية وآدابها ، وخاصة من منابعها الأصلية في البادية . فكان النطق السليم والقول الحكيم وارتجال الشعر من الملكات التي فطر عليها العربي ، وغدت أجيال التابعين تحرص على الالتقاء بهؤلاء العرب والاختلاط بهم للوقوف على أسرار اللغة العربية وجمالها .

وشب موسى بن نصير في هذا الوسط العربي الخالص ، وبدأت تنمو فيه ملكات العربي الأصيل من حيث حلاوة اللسان والقدرة على البيان . ولم تفارقه هذه الملكات في يوم من الأيام ، وانما زادت بها الأحداث والملابسات قوة وروعة . وشهدت له بذلك النماذج التي حفظتها المراجع عن مناقشاته في مجالس الخلفاء ، ومراسلاته لأقرانه ومعاصريه من كبار رجال الدولة ، وخطبه التي ألقاها في جنوده وهم على أهبة القتال . وكانت مجالس الخلفاء الأمويين خاصة تحفل بالكثير من المناقشات السياسية والأدبية والمناظرات والمفاخرات ، وحاول كل من اشترك فيها أن يظهر أقصى ما لديه من علم ومواهب وفن وخبرة كذلك .

واسهم موسى بن نصير في تلك الندوات المتعددة ، وكان له قصب السبق في المناقشات التي اشترك فيها . فذكرت إحدى الروايات حادثة تشهد لموسى بن نصير بالبلاغة في تلك المناقشات قائلة : ان منازعة جرت بين موسى بن نصير وبين عبد الله بن يزيد الأنصاري ، وهو من التابعين ، في حضرة عبد الملك بن مروان ، واضطر موسى في هذه المناسبة أن يقول شعرا يفتخر فيه بمقدرته على الجدل والحديث والقدرة على منازلة منازعيه دون أن يسأم أو يناله الضجر ، ودون أن ترهبه كثرة الحاضرين ، فقال :

جارية غير سئوم في مطاولة

لو نازع الحفل لم ينزع الى حصر

واكدت اكثر الروايات التاريخية التي تناولت سيرة موسى

ابن نصير علو كعبه في ميدان الثقافة العربية والامام بفنونها .
فأشارت احدى تلك الروايات الى « أن موسى كان عربيا فصيحاً » ،
على حين وصفت رواية أخرى مكانته بين كبار الأدباء والشعراء في
تلك العبارة الرصينة الوافية : أما معارف موسى بن نصير الأدبية
« فقد جاءت عنه بلاغة في النظم والنثر تدخله مع نزارتها (أى قلتها)
في أصحاب درر الكلام » .

واذا كان موسى بن نصير قد استمد مقومات دراساته الدينية
والأدبية من أرض الحجاز فانه مدين بتربيته السياسية والعسكرية
الى بلاد الشام . اذ أصبحت دمشق منذ خلافة عثمان بن عفان
قاعدة نشاط البيت الأموي الطامح الى السلطان ، ومركزا يجتذب
اليه كل العناصر الصالحة لتأييده وخدمة أهدافه ، اذ اعتبر الأمويون
وصول عثمان بن عفان الى الخلافة كسبا لهم ، وسبيلا اوصل
السلطان اليهم باعتباره ينتمى الى أمية الجد الأكبر لهم . وكان
معاوية بن أبي سفيان ، وهو والى الشام اذ ذاك ، يعمل طيلة خلافة
عثمان بن عفان على الاحتفاظ بسلطان الحكم في بيت بنى أمية ،
ويستنفذ في سبيل ذلك كل ما أوتى من دهاء وسياسة .

وأجاد معاوية انتقاء الرجال وتأليف قلوب من يرى فيهم
الصلاحية للاعتماد عليهم ، وكذلك التفانى في تنفيذ مآربه . واجتذب
معاوية اليه نصير والد موسى بن نصير ، وعهد اليه برئاسة حرسه ،
وهو منصب لا يتولاه الا كل من نال الثقة الكاملة ، واصبح أهلا
للمتعة بمركز الصدارة وسط رجال الحكم . واتيح لموسى بالتالى
أن ينتقل الى بيت معاوية بن أبي سفيان وأن يتدرب هناك في اكبر
وأعظم مدرسة للسياسة شهدتها الدولة العربية الاسلامية في صدر
حياتها .

وأول درس تلقاه موسى بن نصير في هذه المدرسة الجديدة هو
موقف معاوية بن أبي سفيان من الفتنة التى أطاحت بالخليفة عثمان
ابن عفان ، وما تلاها من صراع بين على ومعاوية . اذ كان والد موسى ،

بحكم منصبه رئيسا لحرس معاوية بن أبى سفيان ، على صلة بتلك الأحداث ، ومضطر لمراقبة تطوراتها عن كثب . وكان موسى نفسه قد اقترب اذ ذاك من سن العشرين من عمره ، وصار ناضجا وعلى وعى كامل لمتابعة المناورات السياسية والحربية التى قام بها معاوية ابن أبى سفيان للانفراد بالسلطان . ومن الخطوات الهامة التى اتخذها معاوية اذ ذاك هو تجميع اكبر قدر من الرجال لمحاربة على ابن أبى طالب ، الذى كان قد زحف على الشام ، والتقى بجند معاوية عند صفين ، الى الجنوب من الرقة ، على الضفة الغربية لنهر الفرات .

وشاهد موسى بن نصير فى هذه المرحلة الحرجة فى حياة معاوية ابن أبى سفيان درسا فى حرية الرأى والشجاعة فى القول من والده . ذلك أن معاوية بذل كل ما فى استطاعته لتعبئة قواته ، وطلب المساعدة من جميع رجاله على اختلاف مراتبهم . وكان والد موسى ابن نصير لا يرى الرأى فى مجاربة على بن أبى طالب ، وهو موقف جرى جدا فى هذه الأيام الحاسمة فى تاريخ البيت الأموى . ولذا عندما طلب منه معاوية الخروج معه لحرب على بن أبى طالب رفض ، على الرغم مما يفرضه عليه منصبه من تبعات والتزامات .

وجرى بين معاوية ووالد موسى بن نصير هذه المناقشة التى صارت درسا قيما للابن لم ينسه أبدا ، وغدا ما حفظه منه عنوانا على ما تحلى به دائما وطيلة حياته من حب للشجاعة فى القول ، والحرية فى ابداء الرأى عن عقيدة وإيمان . اذ قال معاوية لوالد موسى بن نصير : ما يمنعك من الخروج معى للقتال ، ولى عندك يد لم تكافئنى عليها ولم تجزئنى بها ؟ .

فأجاب والد موسى : لم يمكنى أن أشكر نعمتك بكفرى بمن هو أولى منك بشكرى .

فسال معاوية والد موسى مرة أخرى : ومن هو ؟ .

فقال والد موسى لمعاوية : هو الله عز وجل .

ولم يستطع معاوية بن أبي سفيان أمام هذه الاجابة الجريئة
البليغة في معناها وفي أدائها أيضا الا أن يطرق برأسه هنيهة يفكر
فيها وفيما احتوته من معان سامية وشجاعة نادرة . ثم رفع رأسه
وهو يقول : استغفر الله ، استغفر الله ، وترك والد موسى بن نصير
في منصبه ، احتراماً لرأيه ، واعترافاً منه بأن ثقة البيت الأموي في
هذا الرجل وإيمانه بولائه فوق الشبهات ، وفوق الجدل
أو الامتحانات .

وظلت مكانة والد موسى بن نصير عالية لدى معاوية بن أبي سفيان،
الذي رأى في صراحة هذا الرجل ما يجعله يعتز به ويعمل على
الاحتفاظ به في خدمة دولته . اذ سرعان ما تمخض النزاع بين
معاوية بن أبي سفيان وعلى بن أبي طالب عن قيام البيت الأموي
وتولية معاوية خليفة على الدولة العربية الاسلامية سنة ٤١ هـ /
٦٦١ م . ورأى الخليفة الجديد أنه بحاجة أكثر من قبل الى أبناء
الرجال الذين يعملون معه ، ودعم ملكه الذي آل اليه .

ووجد موسى بن نصير في العهد الجديد آفاقاً واسعة للعمل
والتدرب في ميدان الجهاد اكمل به ما سبق أن درسه في حلبة
السياسة ودروبها . وأفسح معاوية بن أبي سفيان للشباب موسى
ابن نصير السبيل للاشتراك في تنفيذ سياسته الحربية الجديدة
الخاصة ببناء بحرية عربية تعمل على حماية شواطئ دولته المطلة
على البحر المتوسط من خطر الأعداء . وكان معاوية بن أبي سفيان
قد استهل سياسته الجديدة منذ تعيين واليا على بلاد الشام . فقد
استرعى نظره قرب جزيرة قبرص من ولايته ، وتيقنه ان الروم
(البيزنطيين) وهم أعداء الاسلام اذ ذاك حرصوا على اتخاذ تلك
الجزيرة قاعدة للاغارة على الشام ، وتهديد أمن الأهالي بها . وقاد
معاوية بن أبي سفيان ، وهو وال على الشام ، حملتين على جزيرة
قبرص ، واتفق مع أهلها على ان يقفوا على الحياد في الحرب بين
المسلمين والروم ، ولا يطلعوا الروم على خطط المسلمين أو يقدموا
لهم أية مساعدة من شأنها الاضرار بالمسلمين .

وكان موسى بن نصير قد بلغ الخامسة عشرة من عمره ، يوم خرج معاوية بحملته البحرية الثانية على جزيرة قبرص (٣٣ هـ / ٦٥٤ م) ، وشاهد عن كثب ، وهو في كنف والده بالشام استعدادات معاوية البحرية ، ووقف على أهمية هذه السياسة الجديدة التي تبناها هذا الوالي النشيط . وكان من حسن حظ موسى بن نصير أن يتابع بنفسه وهو بالشام تطور السياسة البحرية للعرب ، وأن يشترك بنفسه ، في خلافة معاوية ، في تنفيذ أهدافها وتحقيق مآربها . ذلك أن الروم استهدفوا باغاراتهم البحرية على سواحل الشام ومصر أيضا طرد المسلمين منها ، اعتمادا الى افتقار الجيوش العربية الى الخبرة بحرب البحار في مطلع فتوحهم في مصر والشام ، والى عدم وجود أساطيل للعرب تصد تلك الاغارات .

ولذا جاءت سياسة معاوية بن أبي سفيان البحرية وانطلاقها منذ ولايته للشام عنصرا هاما في تأمين ودعم الشواطئ الشامية المصرية ، وصد العدوان المتكرر من جانب أساطيل الروم . وشاهد موسى بن نصير تلك الجهود الجبارة ، ثم خروج السفن العربية بقيادة معاوية لمنع الروم من الاستيلاء على جزيرة قبرص ، وجعلها قاعدة تهدد الفتوح العربية وشاءت الأحداث أن تضيف الى مشاهدات موسى في تلك السياسة الجديدة درسا رائعا قبيل نشوب الصراع بين على ومعاوية . ذلك أن أساطيل العرب الجديدة خرجت من الشام ومصر سنة ٣٤ هـ / ٦٥٤ م ، وأحرزت نصرا باهرا على أسطول الروم في وقعة « ذات الصواري » المشهورة ، وهيأت للعرب الانتقال من دور الدفاع البحري الى مرحلة الهجوم والتوسع في البحر المتوسط وتقليم أظافر أساطيل الروم .

وشارك موسى بن نصير في نشاط هذه المرحلة الهامة من عصر انطلاق البحرية العربية ، وغدا أحد أمراء البحار الذين أسهموا في الهجوم على قواعد الروم في شرق البحر المتوسط . وكان معاوية ابن أبي سفيان لا ينتدب لهذه الحملات البحرية الا المقربين للبيت

الأموى ، والمشهود لهم أيضا بالجرأة وحب المغامرة . فالمعروف أن قتال البحر يختلف عن قتال البر ، ويتطلب في أمير البحر أو قائد الحملة جنانا ثابتا ويقظة تامة وقدرة عالية على التصرف أمام المواقف المفاجئة التي تثيرها عواصف البحر وأنوائه . ولذا كانت تولية معاوية بن أبى سفيان موسى بن نصير « غزو البحر » دلالة على ثقة البيت الأموى في هذا القائد الشاب ، ورغبة السلطات الأموية في الافادة من مواهبه للدفاع عن أرض الدولة الفتية في شرق البحر المتوسط .

وكان ميدان النشاط البحرى الذى صال فيه موسى بن نصير وجال هو جزيرة قبرص وما جاورها من الجزر التى هددت دائما أمن الشام وسلامته . ذلك أن الروم دأبوا بعد وقعة ذات الصوارى على القيام بحملات سريعة من تلك الجزر والاحتماء بها بعد انتهاء مهمتها . وكان معاوية قد ترك حامية في جزيرة قبرص لتراقب نشاط الروم ، ولتحول دون ضغط الأساطيل التابعة للأعداء من انزال الأذى بالأهالى . وتطلب هذا الأمر تكرار نشاط الأساطيل العربية حول جزيرة قبرص والعمل على تقوية خطوط الدفاع فيها . واضطلع موسى بن نصير بهذه المهمة ، فبنى حصونا بتلك الجزيرة لصد هجمات الروم البحرية . واستطاع بعد ذلك القيام بغزو عدد من الجزر القريبة من قبرص ، وأثبت جدارة فائقة في تنفيذ السياسة البحرية العربية وهى في أيامها الأولى .

واستفاد موسى بن نصير فائدة كبيرة من هذا النشاط البحرى الذى اشترك فيه ، وخرج بدروس كان لها أكبر الأثر في حياته فيما بعد عندما أتاحت له الظروف الانتقال الى الميدان الإفريقى . اذ عرف من جهاده في شرق البحر المتوسط أساليب الروم ، ووقف على خططهم في الاعتماد على السفن الحربية لعرقلة نشاط المسلمين ، واتخاذهم للجزر القريبة من الشواطئ الإسلامية قواعد لشن الاغارات المفاجئة . واستحق موسى بن نصير بفضل ما توافر له

من خبرات بحرية في هذا الميدان أن ينال الأمجاد الرائعة حين رشحته الأحداث فيما بعد للجهاد في شمال افريقيا ، وطرد الروم من تلك البقاع الهامة من غرب البحر المتوسط .

وبانتهاء خلافة معاوية بن أبي سفيان بدأ موسى بن نصير يدخل معركة السياسة مرة أخرى . ذلك أن خلافة يزيد بن معاوية اتسمت بالمنازعين له على العرش ، من أمثال الحسين بن علي بن أبي طالب ، ثم عبد الله بن الزبير ، الذي اتخذ من الحجاز مقرا لدعوته ومركزا لمناهضة سلطان البيت الأموي . ولم يستطع الجيش الذي بعث به يزيد بن معاوية الى الحجاز القضاء على ابن الزبير بسبب وفاة الخليفة (٦٤ هـ / ٦٨٤ م) ، واضطرار الجند الى العودة الى الشام .

وانغمس موسى بن نصير في المشاكل السياسية الكبرى التي أعقبت وفاة يزيد بن معاوية وخالف في ذلك موقف والده الذي سبق أن شاهده أيام الخلاف بين علي ومعاوية . فبينما آثر والد موسى بن نصير عدم الدخول في ميدان الصراع ، عمد موسى الى ترك سياسة الحياد والاشتراك في الصراع الذي نشب بين الطامعين في الخلافة بعد وفاة يزيد بن معاوية . ولكن باستقرار الأمر لمروان ابن الحكم سنة ٦٥ هـ / ٦٨٤ م ، ، وتوليه عرش الخلافة ، عاد موسى ابن نصير الى خدمة البيت الأموي ، وبدأ يستعيد نشاطه في تثبيت أركان الدولة الفتية . وكان عبد العزيز بن مروان ، الابن الأكبر للخليفة مروان ، هو صاحب الفضل في احتضان موسى بن نصير ، وضمه الى الفرع المرواني ، الذي آلت اليه مقاليد الأمور في دمشق . اذ آمن عبد العزيز بن مروان بمواهب موسى بن نصير ايمانا راسخا ، وهياً له كل الفرص لوضع هذه الخدمات في سبيل اعلاء كلمة الاسلام والعروبة .

واعتز موسى بن نصير بهذه العلاقة التي قامت بينه وبين عبد العزيز بن مروان ، ووجه كل مواهبه ليكون عند حسن ظن هذا السليل الأموي الكبير . وعندما ولى عبد العزيز بن مروان

شئون مصر ، اصطحب معه موسى بن نصير ، الذى تولى مركز المستشار الأول لوالى مصر ، فى هذه المرحلة الهامة من إعادة دعم سلطان البيت الأموى ، وأن يسهم مع واليها فى إدارة شئون مصر .

واستعانت الخلافة أيضا بموسى بن نصير لاقرار الأوضاع فى العراق . اذ بعث الخليفة فى دمشق - وكان اذ ذاك عبد الملك ابن مروان - الى أخيه عبد العزيز بن مروان والى مصر أن يبعث موسى بن نصير الى العراق ليكون وزيرا لأخيهم بشر بن مروان الذى صار واليا على البصرة . وجاء فى خطاب الخليفة الى عبد العزيز ابن مروان ما يلى : « انى قد وليت أخاك بشرا على البصرة ، فاشخص معه موسى بن نصير وزيرا ومشيرا ، .. وأعلمه بأنه المأخوذ بكل خلل وتقصير » .

وظل موسى بن نصير يؤدى واجبه كاملا بالعراق حتى توفى بشر بن مروان ورأى موسى أن الأحداث بالعراق لا تهيب له الاستقرار ، ولذا عاد الى دمشق ، ليقدم للخلافة تقريرا عن المدة التى قضاها بالبصرة . وكان الخليفة قد اتهم موسى بالتقصير فى جمع الخراج ، وفرض عليه غرامة فادحة .

وشاءت الأقدار أن تبعث الى دمشق فى تلك الاثناء بوالى مصر ، عبد العزيز بن مروان . فدافع عن موسى بن نصير دفاعا مجيدا ، وتحمل عنه شطرا من الغرامة المفروضة عليه ، ثم اصطحبه فى عودته الى مصر ، وأطلق يده مرة أخرى فى معاونته فى إدارة ولايته . وبعودة موسى بن نصير الى مصر انتهت أيام الصبا والشباب ، وما امتلأت به من الأحداث الجسام ، والتجارب العظام ، وبدأ يطل من مصر على « الميدان الافريقى » ، الذى سجل فيه سيرة جهاده بمداد من الفخر والجلال .

الفصل الثالث

النأهيل للميدان الإفريقي

عودة موسى بن نصير سنة ٧٥ هـ / ٦٩٥ م الى مصر في صحبة واليها عبد العزيز بن مروان نقطة تحول هامة في حياته وحياة العروبة والاسلام كذلك .

اذ ترك العمل في ميدان المشرق بتياراته الصاخبة العنيفة ، وولى وجهه شطر المغرب الحافل بأعمال المجد والبطولات .

وقضى موسى بن نصير - قبل أن ينتقل الى شمال أفريقيا - عشر سنوات بمصر ، كانت من أهم السنوات التي بنى عليها مجده الحربي والاداري ، ليس في تلك الجهات الجديدة فحسب ، بل فيها وفي غرب أوروبا أيضا .

وكانت الجهات المسئولة والدوائر الرسمية في مصر تتحدث في الوقت الذي عاد فيه موسى بن نصير الى تلك البلاد عن أحوال الفتوح العربية في شمال أفريقيا ، وتحاول أن تقف على أسباب العشرات التي منيت بها الفتوح في تلك الجهات . فشاهدت الديار المصرية اذ ذاك استعدادات حربية واسعة النطاق لارسال حملة كبيرة بقيادة حسان بن النعمان من أجل استرداد المواقع التي ضاعت بسبب استشهاد سلفه القائد زهير بن قيس البلوي سنة ٧٠ هـ / ٦٩٠ م على ارض برقة . اذ أطاحت كارثة هذا القائد بكل الجهود

الحربية في شمال افريقيا ، وبدا الموقف يتطلب عملا متصلا من جديد مرة أخرى .

ولم تستطع حملة حسان بن النعمان التي خرجت من مصر فعلا سنة ٧٦ هـ / ٦٩٦ م أن تخلق الاستقرار المنشود في الميدان الافريقي ، وظلت الأوضاع هناك في حاجة الى المزيد من البحث والاستقصاء . وتولى عبد العزيز بن مروان والي مصر دراسة هذا الموقف الافريقي بنفسه ، وجهد في وضع طاقاته للبحث عن قيادات جديدة تستطيع اتمام الرسالة التي بدأها نفر من خيرة قادة العرب في شمال افريقيا ، دون أن يحالفهم الحظ في تحقيق النصر الكامل . ووقع نظر عبد العزيز بن مروان على صفيه ومحل ثقته المطلقة ، موسى بن نصير ، الذي عاد معه من الشام ، وأخذ يؤهله لتولى القيادة العامة في هذا الميدان الافريقي .

وكان موسى بن نصير فعلا هو رجل الساعة ، والجدير بالترشيح لهذا الدور الجليل الذي ادخرته له المقادير . إذ أتاح له عبد العزيز ابن مروان كل أسباب القوة والنفوذ ، وأشركه معه في الدراسات الخاصة بالميدان الافريقي ، ووضع تحت تصرفه كل ما في مصر ودواوينها من معلومات عن هذه الجبهة . وعقد عبد العزيز بن مروان على موسى بن نصير الآمال الكبار في استقرار الأوضاع في شمال افريقيا . وأثبت موسى بن نصير أنه أهل لهذه الثقة المطلقة من جدارة واستحقاق ، إذ أقبل طوال بقائه في مصر على دراسة الميدان الافريقي ، وخرج من دراساته بنتائج باهرة ، كفلت له قصب السبق في هذا الميدان ، ونجح في اتمام الرسالة التي سبق أن بدأها العرب هناك .

واشتملت دراسة موسى بن نصير في السنوات العشر التي قضاها بمصر ، وهي سنوات التأهيل للميدان الافريقي ، على ثلاثة موضوعات

هامة ، صارت كل منها حلقة رئيسية في سلسلة الخبرات الحربية والسياسية التي اتاحت له النصر الحاسم السريع في هذا الميدان ، وتلك هي :

أولا - دور مصر في حركة الفتوح العربية في شمال افريقيا .

ثانيا - التاريخ الحربى لحملات القادة العرب الذين سبقوه في الميدان الافريقى .

ثالثا - متابعاته الشخصية لحملة حسان بن النعمان التي شاهد بنفسه خروجها من مصر ، وعاصر أحداثها ، والتي تولى بعدها مباشرة القيادة في الميدان الافريقى .

وتمثل هذه الموضوعات الثلاثة العمود الفقرى لجميع الخطط التي وضعها موسى بن نصير للعمل في شمال افريقيا .

خرج موسى بن نصير من الدرس الأول بفهم سليم للطريق الذى يجب أن يسير فيه الجهاد في بلاد المغرب . فعرف أن الجهود العربية يجب أن تتجه أولا وأخيرا نحو الروم الرابضين في شمال افريقيا وقواعدها ، لأنهم هم الذين وقفوا بالمرصاد للحيلولة دون انتشار العروبة والاسلام هناك ، كما سبق أن وقفوا في عناد و صلف من قبل أمام الفتوح العربية في الشام ومصر . وجساء إيمان موسى ابن نصير بهذه العقيدة ثمرة الخبرة التي تركها عمرو بن العاص ، الوالى العربى الأول لمصر ، لأجيال القادة العرب من بعده في تلك الجهات . اذ أدرك عمرو بن العاص ، بعد أن أتم فتح مصر ، أن ذنب افعى الروم (البيزنطيين) ما زال قائما ، وأنه لابد من القضاء عليه لاستقرار الفتوح العربية في مصر . فقد شاهد بنفسه شدة مقاومة الروم في مصر للزحف الاسلامى بفضل الامدادات التي جاءتهم من قواعدهم في شمال افريقيا ، وبخاصة من برقة .

وارسل عمرو بن العاص عدة حملات استطلاعية للكشف عن قواعد الروم في شمال افريقيا ، وتأكد له خطورة هذا العدو الرابض في تلك الجهات . وتابع خليفته في مصر ، وهو الوالى عبد الله ابن ابي سرح سياسة الكشف عن قواعد الروم ، وقاد بنفسه حملة سنة ٢٨ هـ / ٦٤٨ م توغل بها في قلب افريقية (تونس) واضطر أخيرا الى العودة الى مصر بسبب نشوب الفتنة التي ادت الى مقتل الخليفة عثمان بن عفان ، وما تلاها من صراع بين على ومعاوية حول الخلافة . وباستقرار الأمر لمعاوية تابع ولاية الدولة الأموية في مصر سياسة مراقبة الروم في شمال افريقيا ، وارسال الحملات من أجل طردهم من هناك ، وتحرير أهالي تلك البلاد من سطوتهم وبطشهم .

وصارت امام موسى بن نصير سياسة واضحة المعالم عن خبرة ولاية مصر بشئون شمال افريقيا منذ ولاية عمرو بن العاص حتى ولاية عبد العزيز بن مروان ، صديقه وحاميه . فقد كرس أولئك الولاة خلفا عن سلفا شطرا كبيرا من دخل البلاد لتزويد الجيوش المتجهة منها الى شمال افريقيا بكل ما تحتاج اليه من عدة وعتاد ، فضلا عن امداد قادة تلك الجيوش بالخبرات والمعلومات الحربية الهامة . وصارت مصر هي القاعدة التي تحمى الجيوش العربية اذا حل بها مكروه ، والحصن الذي يحفظ لها قوتها ، ويجدد في جنودها وقاداتها حب الجهاد والنضال . وفدا من الضروري على كل متجه الى الميدان الافريقى أن يقضى بعض الوقت في مصر ليتزود من ينابيعها المادية والعلمية ، ويستفيد مما بها من خبرات تساعد على حرب الروم أعداء العرب والاسلام في شمال افريقيا .

وازدادت خبرة موسى بن نصير بدور مصر في حركة الفتوح العربية في شمال افريقيا عن طريق التقائه أيضا بنفر كثير من رجالات مصر ممن سبق أن اشتركوا في الحملات الحربية في الميدان الافريقى أو أسهموا في تدبير شئونها . وكانت مصر تزخر في تلك الأيام التي

عاش فيها موسى بن نصير قبل خروجه الى شمال افريقيا بعدد كبير من المقاتلين العرب ، سواء كانوا ممن خاضوا بأنفسهم غمار الحروب في الميدان الافريقى ، او كانوا من أبناء الذين استشهدوا على ارض هذا الميدان ، وحفظوا عن آبائهم نماذج رائعة عن البطولة والشجاعة في سبيل الجهاد من أجل العروبة والاسلام .

وصارت هذه الطبقة من أهل الخبرة بشئون شمال افريقيا المصدر الذى رجع اليه موسى بن نصير للبحث عن سبب تعثر الحملات الحربية في شمال افريقيا ، والاستماع الى ما لدى رجالها من وجهات نظر متباينة ، تساعد دراستها على تبين معالم الطريق القويم . وانتقل موسى بن نصير بذلك انتقالا طبيعيا ومنطقيا الى دراسة التاريخ الحربى للحملات العربية التى خرجت الى شمال افريقيا ، وانعام النظر فى خطط قادتها ، والجهد فى الكشف عن طبيعة العقبات التى واجهتها . واذا كان هذا القائد الموهوب قد عرف من الدرس الأول أن الروم هم مصدر الخطر على الفتوح العربية فانه كشف عن طريق دراسته لتاريخ الحملات العربية خطط هذا العدو لحرمان القادة العرب من ثمار جهادهم وكفاحهم فى الميدان الافريقى .

ووجد موسى بن نصير أمامه سياستين تتصارعان فى شمال افريقيا ، لكل منها أهدافها الكبرى ، ووسائلها المتعددة لتحقيق تلك الأهداف . فالسياسة الأولى حمل لواءها العرب ، واستهدفت تحرير شمال افريقيا من ربة الروم واخراجها من الظلمات الى النور ، والسياسة الثانية حمل لواءها الروم الذين استماتوا فى الاحتفاظ بسلطانهم على شمال افريقيا ، والعمل بشتى السبل على ابعاد أهلها عن تيار العروبة والاسلام .

وعرف موسى بن نصير أن عقبة بن نافع الفهرى هو واضع الحجر الأساسى للسياسة الاسلامية فى شمال افريقيا ، وما اتسمت

به من أهداف جلية . فكان عقبة من أصحاب الخبرة الواسعة بشئون شمال افريقيا ، عن طريق الدراسة الميدانية ، اذ تولى قيادة الحملات الاستطلاعية التي بعث بها عمرو بن العاص لكشف قواعد الروم في برقة ، ثم أقام في تلك الجهات مدة من الزمن جعلته يدرك أن فتح العرب للمغرب لن يتم الا اذا أنشأ المسلمون لهم مدينة في « افريقية » ، وهي جمهورية تونس الحالية . ونفذ عقبة هذه الأمنية سنة ٥٠ هـ / ٦٧٠ م حين خرج بحملته الأولى على شمال افريقيا ، وأسس مدينة القيروان .

ولكن الروم وقفوا لمجهودات العرب بالمرصاد ، وتمكنوا من الإطاحة بانتصارات عقبة حين خرج في حملته الثانية على شمال افريقيا سنة ٦٣ هـ / ٦٨٣ م ، اذ أعدوا له كميناً عند بلدة تهودة ، واستشهد في المعركة التي دارت رحاها هناك . ولم يستطع خليفة عقبة في الميدان وهو زهير بن قيس البلوى ، أن يتجنب نفس المصير الذي ألم بسلفه . ذلك أن الروم أعدوا له كميناً آخر عند برقة ، واستشهد زهير ، نتيجة غدر الروم ، وخياناتهم المتكررة .

وكانت أصداء هذه الكارثة التي حلت بزهير هي التي ملأت ديار مصر ، في الوقت الذي عاد فيه موسى بن نصير من العراق ، بعد مقابلته للخليفة في دمشق ، مع والى مصر عبد العزيز بن مروان . وشاهد موسى أيضاً في تلك الأثناء الاستعدادات الحربية التي خرج على رأسها حسان بن النعمان ، وهو القائد الذي سيخلفه موسى مباشرة في الميدان الافريقى .

وتمثل حملة حسان بن النعمان الموضوع الثالث في التأهيل الذي حصل عليه موسى في سبيل الجهاد في شمال افريقيا . اذ تابع أخبار هذه الحملة منذ خرجت من مصر سنة ٧٦ هـ / ٦٩٦ م وعرف كيف أن الفشل أصابها بسبب تشتيت حسان لجهوده بين الروم

وغيرهم ، واضطراره للانسحاب الى برقة . ولم يستطع حسان استئناف الحرب الا بعد أن جاءت الامدادات من مصر مرة أخرى ، وتمكن بفضلها من الانتصار على الروم .

وكان عبد العزيز بن مروان ، والى مصر ، قد شعر أن الموقف في الميدان الافريقى بات يتطلب قيادات جديدة تضع حدا لعمليات الكر والفر هناك . ووقع نظره على موسى بن نصير الذى أتم اذ ذاك دراساته ، وصارت تتوافر له المؤهلات المطلوبة للعمل في الميدان الافريقى ، وهى الكفاية الحربية والقدرات السياسية والادارية كذلك . وهكذا أتاحت المقادير لموسى بن نصير أن يسطر للعروبة والاسلام صفحات رائعة في شمال افريقيا ، وما جاورها من بلاد غرب أوروبا .

الفصل الرابع

أمير القيروان

موسى بن نصير منصب القائد العام للميدان الافريقى سنة ٨٥ هـ / ٧٠٥ م ، فغادر مصر متجها الى مقر عمله بالقيروان ، التى أصبحت منذ أسسها عقبة ابن نافع الفهرى قاعدة للفتوح فى شمال افريقيا .



وسار النصر فى ركاب موسى بن نصير منذ ذلك الوقت دون أن يتخلى عنه لحظة واحدة . ذلك أن هذا القائد العام الجديد كشف فى جرأة عما تحلى به من مواهب عالية ، قوامها الصراحة مع الحزم ، والإيمان العميق برسالته ، مع القدرة على التخطيط السليم .

واستهل موسى بن نصير مهامه الجديدة بأن شرح للجنود سياسته ، وجعلهم يشعرون أنه واحد منهم . واستعان موسى ابن نصير فى توضيح سياسته بما تحلى به من بلاغة وفصاحة لسان ، وهى أمور ترفع من شأن القائد ، وتمنحه الهيبة والاجلال فى النفوس . فوقف بين الجنود خطيبا وقال لهم :

« أنا رجل كأحدكم ، من رأى منى حسنة فليحمد الله ، وليحص على مثلها ، ومن رأى منى سيئة فلينكرها ، فانى أخطيء كما تخطئون ، وأصيب كما تصيبون . وقد أمر الأمير - أكرمه الله - لكم بعطاياكم ، وتضعيفها ثلاثا ، فخذوها هنيئا مريئا . ومن كانت

له حاجة فليرفعها إلينا ، وله عندنا قضاؤها على ما عز وهان ، ومع
المواساة ان شاء الله ، ولا حول ولا قوة الا بالله » .

وبعد هذا الخطاب الرائع بدأ موسى بن نصير يعد خطته الحربية
لاستكمال فتح شمال افريقيا ، وانهاء هذه المرحلة التى طالت من
مراحل الفتوح الاسلامية . وقد ساعدته دراساته المستفيضة التى
قام بها فى مصر ، أيام مراحل التأهيل للميدان الافريقى ، على أن
يضع خططا سليمة موفقة . وكان أول شىء استفاد منه موسى
ابن نصير هو الربط بين طبيعة البيئة الجغرافية لشمال افريقيا وبين
أعماله الحربية . فكل من سبقه من القادة ، ومن بينهم حسان
ابن النعمان نفسه ، انطلقوا فى فتوحهم دون تنسيق بين ما تطلبه
الأعمال الحربية وطبيعة الامتداد الجغرافى للبلاد . ولذا صارت
جميع الحملات الحربية السابقة متشابهة فيما بينها ، لا تخرج عن
كونها حملات كر وفر ، يبذل فيها الجهد العظيم والعناء الشامل
دون أن تتمخض عن نتائج ثابتة راسخة .

وتجنب موسى بن نصير هذا الخطأ الذى وقع فيه أسلافه بفضل
الدراسة والاعداد فى مصر . فرأى أن يعتمد أولا الى تأمين المنطقة التى
تقع فيها القىروان ، قاعدة الفتوح ، ولأن هذه المنطقة هى الميدان الذى
يث فيه الروم نشاطهم لافساد كل تقدم للمسلمين ينطلق منها
الى سائر جهات شمال افريقيا ، الدانية منها والقاصية . وكانت
هذه المنطقة قد قسمت تقسيما اداريا أطلق عليه الروم أيام سيادتهم
عليه اسم « افريقية » ، تميزا له عن سائر الأقسام الادارية التى
قسموا اليها الرقعة الشاسعة لامتداد شمال افريقيا من حدود
مصر الى ساحل المحيط الأطلنطى .

ويعتبر موسى بن نصير أول من أدرك أهمية التقسيمات الادارية
التى وضعها الروم لشمال افريقيا ، واستفاد منها فائدة كبيرة فى
تنسيق خطته الحربية . وكان الروم يطلقون على القسم المتاخم
لمصر اسم « أنطابلس » ، أو « بنطابلس » ، وهو اسم يونانى قديم ،
ومعناه المدن الخمس ، وأحيانا يسمى باسم برقة عاصمة هذا الاقليم

الادارى . وشاهد هذا الاقليم الادارى نشاط موسى بن نصير الحربى قبيل توليه القيادة العليا للميدان الافريقى ، واستطاع أن يقضى على نشاط الروم هناك ، ويحول بينهم وبين قطع خطوط مواصلات المسلمين المارة فى تلك الأراضى . ولذا عسرف موسى ابن نصير منذ بداية نشاطه الحربى طبيعة التقسيم الادارى للروم ابتداء من الحدود المصرية . اذ إقام الى جانب القسم السالف الذكر قسم آخر أطلق عليه الروم اسم « طربليطة » ، ومعناه باليونانية المدن الثلاث ، وهو الذى عرفه العرب باسم « طرابلس » . وكان هذا الاقليم يعتبر امتدادا لبرقة اداريا وجغرافيا ، دون أن يختص بميزة واضحة ، غير أنه مدخل للقسم الادارى المشهور باسم « افريقية » .

ولذا كان اهتمام موسى بن نصير بدعم مركز القاعدة الاسلامية فى « افريقية » الأساس المتين الذى شيد عليه مجده الحربى فى سائر أرجاء شمال افريقيا فيما بعد . ذلك أن هذا القسم الادارى اشتمل — على نحو ما كان عليه أيام الروم — على البلاد التونسية الحالية مع الأجزاء الغربية من طرابلس ، ثم ما امتد الى التخموم الشرقية لبلاد الجزائر الحالية الى بجاية فى ولاية قسطنطينية . ويلمس الناظر الى الخريطة الجغرافية لهذا القسم الادارى أن افريقية تعتبر عصب الامتداد الشاسع لبلاد شمال افريقيا كلها من حدود مصر الى سواحل المحيط الأطلنطى . فأرض « افريقية » هى الحلقة التى تربط بين برقة وطرابلس شرقا ، وبين الأقاليم التى أطلق عليها الجغرافيون والمؤرخون من شمال افريقيا اسم « المغربان » الأوسط والأقصى . ومن ثم كان استقرار أقدام المسلمين فى « افريقية » معناه استقرار الفتوح بصفة دائمة فى سائر أرجاء شمال افريقيا ، وبخاصة فى المغربين الأوسط والأقصى .

وكان هذان القسمان الأخيران يجلبان انظار قادة الفتوح العربية دائما ، وهو الأمر الذى جعلهم جميعا — قبل موسى بن نصير — ينطلقون فى أراضيهما دون ادراك لأهمية دعم القاعدة الأولى فى

« افريقية » . ووقع في تأثير هذا الاغراء الجغرافي القسائد عقبة ابن نافع الفهري ، الذي بلغ شواطئ المحيط ، ثم ارتد في سرعة ، ودفع حياته ثمنا لها ، واستشهد عند تهوده . وكذلك حدث الشيء نفسه للقائد حسان بن النعمان ، الذي لم يجنبه مصير عقبة غير الامدادات الهائلة التي تلقاها من مصر في حملته الثانية . فكانت اعمال حسان بن النعمان عبارة عن كر وفر ، وهو الامر الذي جعل والي مصر ، عبد العزيز بن مروان يصر ذلك الاصرار العنيف على ضرورة تغيير القيادة العليا للميدان الافريقي ، ودفع اليه بالقائد موسى بن نصير .

وعبر موسى بن نصير عما اعتزم عليه من تغيير جذري في تنظيم العمليات الحربية في شمال افريقيا ، في اليوم الاول من دخوله القيروان . اذا أعلن أنه سيوجه اهتمامه الأكبر والأعظم لتطهير « افريقية » من الروم وعملائهم من أهل البلاد ، حتى يتجنب بذلك المفاجآت ، التي دأب هذا المحور المعادي للمسلمين على ايقاعها بين صفوف « قادة الفتوح العربية » . وأعلن موسى بن نصير سياسته الجديدة لجنده ومستشاريه وكبار العاملين معه في خطاب طويل بليغ ، نصه كما يلي :

«أيها الناس ، ليس أخو الحرب إلا من اكتحل بالسهرة ، وأحسن النظر ، وخاض الغمر ، وسمت به همته ، ولم يرض بالدون من المغم لينجو ، ويسلم دون أن يكلم ، أو يكلم ويبلغ النفس عذرها في غير حرق يريده ، ولا عنف يقاسيه ، متوكلا في حزمه ، جازما في عزمه ، مستزيذا في علمه ، مستشيرا لأهل الرأي في احكام رايه ، متحنكا بتجاربه . ليس بالمتجانب اقحاما ، ولا بالمتخاذل احجاما . ان ظفر لم يزده الظفر الا حذرا ، وان نكب ، أظهر جلادة وصبرا ، راجيا من الله حسن العاقبة ، فذكر بها المؤمنين ورجاهم اياها لقول الله تعالى « ان العاقبة للمتقين » ، أي الحذرين » .

وكانت أحوال « افريقية » حين دخلها سيئة جدا ، بسبب

الخراب الذى حل بالبلاد على يد الكاهنة ، وبسبب سياسة عملاء الروم من أهل البلاد . فكان : « قدوم موسى افريقية وما حولها مخوف ، بحيث لا يقدر المسلمون أن يبرزوا في العيدين لقرب العدو منهم » ، وكانت جبالها كلها محاربة لا ترام ، والسهل عامة .

ونظم موسى بن نصير قواته تنظيما حربيا رائعا ، مستهدفا من وراء ذلك اشعار أهل « افريقية » جميعا بحزم الادارة العربية الجديدة ، واصرارها على نشر الطمأنينة والنظام في ربوع البلاد . وعمد من أجل ذلك الى توزيع النشاط الحربى بين مجموعة من القادة العاملين تحت امرته ، على أن تكون ضرباتهم فى وقت واحد ، لتنزل الرهبة فى نفوس الأعداء ، وتسد أمامهم كل سبيل للهرب أو المراوغة والخداع . وساعد موسى بن نصير على تحقيق هذه الخطة الحربية تعاون هيئة القيادة العاملة معه . اذ تكونت من ابنائه الأربعة ، وهم : عبد الله ، ومروان ، وعبد الملك : وعبد العزيز ، وكذلك مجموعة من خيرة المحاربين العرب ، من بينهم أبناء عقبة ابن نافع الفهري ، وهم : عياض وعثمان وأبو عبيدة ، هذا الى نفر من أهل البلاد الأصليين الذين حسن اسلامهم ، وأشهرهم طارق ابن زياد .

والى جانب هذا الاعداد السليم ، أخذ موسى بن نصير يبعث الشجاعة فى نفوس جنده ويبعث الثقة فيهم . فكان يجول بين الجند ، ويتعرف أحوالهم بنفسه ، ولا يدع فرصة تمر دون أن يستفيد منها فى اعلاء روحهم المعنوية .

واتجهت الشعبة الأولى من حملات موسى بن نصير بقيادة عبد الله الخشيني الى قلعة زغوان وما جاورها ، وهى منطقة جبلية تقع بين القيروان وتونس . وكان يسكن هذه المنطقة جماعة من عملاء الروم ، شكلوا خطرا جسيما على القيروان . اذ كانوا يغيرون على المسلمين ، ويرصدون تحركاتهم ، رغبة فى انزال الفوضى بين صفوفهم . واستطاعت قوات موسى بن نصير أن تقضى على هذا الخطر الدايم ، وبعثت برأس الفتنة الى القيروان .

وفي هذا الوقت بعث موسى بن نصير بابنه عبد الرحمن الى بعض نواحي القيروان حيث أخضع العناصر الخارجة عن الطاعة هناك . وسار ابنه الثاني ، وهو مروان ، الى منطقة أخرى من افريقية ، وأنزل بالموالين للروم أشد ألوان العقاب ، وحملهم على احترام الادارة الجديدة . واستطاع هذان القائدان اتمام هذه المهمة في سرعة مذهشة بفضل ما ساد عمليتهما الحربية من تنسيق وتوقيت سليم . وشعرت أرجاء « افريقية » لأول مرة بقوة الجيوش العربية . وفي الوقت نفسه حرص موسى بن نصير على مراقبة القبائل التي اشتدت بين أفرادها دعايات الروم ودسائسهم ، ومهاجمتهم على حين غرة كلما أحس منهم ميلا للعصيان . ودأب موسى على الخروج بنفسه الى أشباه تلك القبائل لتأديبها ، وليشعرها بسطوة السلطان الجديد في القيروان . وآتت تلك السياسة الحازمة ثمارها في استتباب الأمن والنظام في « افريقية » ، وغدت هذه القاعدة الهامة لأول مرة تنعم بالهدوء والطمأنينة ، وابتعد أهلها تماما عن الروم ودسائسهم . وكتب موسى بن نصير الى والي مصر عبد العزيز ابن مروان يزف اليه بشرى الفتوح الباهرة في « افريقية » ، ويخبره بما أفاء الله به على المسلمين من غنائم وافرة . وكان سرور عبد العزيز ابن مروان عظيما حين تسلم رسالة موسى بن نصير ، وبعث بها من فوره ، مع كتاب منه ، الى الخليفة عبد الملك بن مروان ، قال فيه : « أما بعد ، فاني كنت وانت يا أمير المؤمنين في موسى وحسان ، كالمتراهنين ، أرسلنا فرسيهما الى غايتهما ، فأتيا معا ، وقدمت الغاية لأحدهما ، ولك عنده مزيد ان شاء الله ، وقد جاءني يا أمير المؤمنين كتاب من موسى ، وقد وجته اليك لتقرأه ، وتحمد الله عليه والسلام » .

وكان عبد العزيز بن مروان على صواب حين أشار في رسالته للخليفة أنه سيجد في موسى بن نصير « مزيدا ان شاء الله » من الفتوح . ذلك أن هذا القائد العام ما كاد يفرغ من دعم قاعدته الفتوح في القيروان وافريقية ، حتى وجه نشاطه الحربي الى بلاد

المغرب الأوسط والأقصى . واشتمل المغرب الأوسط على ما تحده بلاد الجزائر الحالية ، والمغرب الأقصى على بلاد مراکش الحالية . وكان خط التقسيم بينهما هو مجرى وادى ملوية ، أو ما بين تلمسان (عاصمة المغرب الأوسط) وتازا (مدينة المغرب الأقصى) .

وكرس موسى بن نصير حملاته نحو المغرب الأوسط ، بعد أن جعل ظهره آمنا تماما في افريقية . فأرسل أحد قادته ، وهو عياش ابن أخيل ، الى قبائل المغرب الأوسط واستطاع أن يدخلها في طاعة المسلمين . ويلاحظ أن التعليمات التي أعطاها موسى بن نصير الى هذا القائد كانت تنص على معاملة القبائل الراغبة في الصلح معاملة كريمة ، وترك تدبير أمورها بيد أناس من أهلها . وفي الوقت نفسه أصر موسى بن نصير على أخذ رهائن من تلك القبائل ضمانا لاحترامها للعهود والمواثيق . وجاءت هذه السياسة بنتائج هامة في تاريخ الفتوح العربية . اذ أتاحت لنفر من أهل تلك القبائل الاقامة وسط الجند العرب ، والتعرف على أهدافهم الحقيقية في الفتح ، وهى أنهم ما جاءوا الا لنشر الاسلام ، واخراج البلاد من الظلمات الى النور ، على عكس ما كانت تصوره دعايات الروم المسمومة . ومن ثم بدأت تكثر أعداد الداخلين في الاسلام من أهل المغرب الأوسط (بلاد الجزائر الحالية) ، وصاروا يكونون قوات جديدة تؤازر جيوش العرب .

ولم تصرف هذه السياسة موسى بن نصير عن المناطق التي رأى انها ما زالت موضع نشاط الروم ووكلائهم . اذ عمد الى تطهير المغرب الأوسط من عملاء الروم ، على نحو ما فعل في « افريقية » . فقصده منطقة « سجوما » ، التي شاهدهت من قبل استشهاد عقبة ابن نافع الفهري ، نتيجة دسائس الروم بين نفر من أهل تلك المنطقة . وكانت استعدادات موسى بن نصير واسعة النطاق ، محكمة التدبير . فترك ابنه عبد الله نائبا عنه في القيروان ، على حين خرج بنفسه على رأس الجيوش الكبيرة العدد لهذا الغرض . وجعل موسى بن نصير على رأس المقدمة عياض بن عقبة بن نافع الفهري ،

وعلى الميمنة زرعة بن أبى مدرك ، وعلى الميسرة المغيرة بن أبى بردة القرشى ، وعلى ساقة الجيش نجدة بن مقسم .

ويدل هذا الاعداد الشامل على حرص موسى بن نصير على سلامة جنده ، وتقديره لخطر المهمة التى يضطلع بها ، وهو الأمر الذى كفل له بالتالى النصر التام . وزحف بجنده حتى وصل نهر ملوية ، والتقى ببقايا الجماعات التى سبق أن اشتركت مع الروم فى التصدى لعقبة ابن نافع الفهرى ، وانزال الهزيمة به . ويعد النصر الذى ناله موسى بن نصير فى تلك الأرجاء رد اعتبار لما حل بالقائد عقبة من غدر ، واستمرار فى الوقت نفسه لسياسته الخاصة بالقضاء على عملاء الروم . وعلى الرغم من المساعدات القيمة التى لقيها موسى بن نصير من أبناء عقبة فى هذه الحملة ، فانه منع أولئك الأبناء من التماذى فى الأخذ بثأر والدهم . وعاد هذا القائد المظفر بعد ذلك الى القيروان بعد أن أتم اخضاع المغرب الأوسط ، ضاربا المثل الأعلى عن القيادة الحكيمة ، فلم يقع فى اغراء الامتداد الجغرافى للبلاد ، وآثر العودة الى القيروان ليعد العدة لفتح المغرب الأقصى .

واتبع موسى بن نصير فى فتح المغرب الأقصى نفس السياسة التى سار عليها فى جميع حملاته الحربية ، وهى توزيع نشاطه الحربى فى شتى الجهات فى وقت واحد ليرهب أعداءه . ونجحت هذه السياسة فى أرض المغرب الأقصى ، اذ جاءت منسجمة مع بيئته الجغرافية . فالمغرب الأقصى يتصف بأن له وجهين ، أحدهما يطل على البحر المتوسط وهو المعروف ببلاد غمارة (أى بلاد الريف حاليا) ، ووجه غربى يطل على المحيط - المحيط الأطلنطى - يكتنفه جبال درن ، وهى جبال أطلس الحديثة . وهذه الواجهة الأخيرة تميز المغرب الأقصى عن بقية البلاد المجاورة له ، هذا الى أن الجبال هناك تشققها أودية الأنهار التى تتجه نحو المحيط . ومن أهم هذه الأنهار وادى سبو ، الذى يكون منخفضا فى شمال البلاد عرفه الكتاب باسم السوس الأدنى (خلف طنجة) تميزا له عن المنخفض الآخر الواقع

في الجنوب الغربي للبلاد ، والذي يشقه وادي سوس (الذي يصب عند أغادير) ويعرف بالنسبة له باسم « السوس الأقصى » .

وبعث موسى الى تلك الجهات بابنه مروان على رأس قوة كبيرة اتجهت الى السوس الأقصى ، على حين سير قائده زرعة بن مدرك الى القبائل المقيمة في جبال أطلس العليا . ونجحت الحملتان نجاحا باهرا ، فقد كانت أشبه بنزهات عسكرية ، نظرا لاقبال السكان هناك على الدخول في الدين الاسلامي . ذلك أن انتصارات موسى ابن نصير الباهرة في « افريقية » والمغرب الأوسط جعلت سكان المغرب الأقصى يؤمنون بجدارة القيادة الجديدة ، ودخلوا طواعية في رحابها . فلم يلق القائد زرعة أية مقاومة من قبائل مصمودة المقيمة بجبال أطلس العليا ، والتي أعلنت قبولها للعهد الجديد .

وأصبحت بلاد المغرب تدين بالطاعة لموسى بن نصير ، من صحراء درعة الى السوس الأقصى الى بلاد المصامدة . ولم يبق أمام هذا القائد المظفر غير بعض المدن الساحلية بالمغرب الأقصى ، التي كانت تخضع لأمير من الروم اسمه يوليان . فاتجه موسى أولا نحو طنجة والجهات المجاورة لها ، وهي المعروفة باسم السوس الأدنى . واستطاع هذا القائد الاستيلاء على تلك البلاد في سهولة ويسر ، فقد دخلت قبائلها من السكان الأصليين في الطاعة للعهد الجديد دون مقاومة . وكان لهذا النصر الباهر أثر كبير في اكمال الصورة التي جهد موسى بن نصير رسمها لبلاد المغرب . ذلك أن طنجة لم تكن مدينة فحسب ، وإنما كانت عبارة عن ولاية كبيرة تشمل السوس الأدنى ، وأهلها معروفون بميلهم نحو الحضارات القديمة التي وصلتهم من بلاد اليونان والرومان ، هذا الى خبرتهم بأحوال غرب البحر المتوسط .

وأظهر موسى بن نصير اهتماما خاصا بتلك الجهات المغربية ، اذ اختار رجلا من خيرة رجال البربر المسلمين ، وهو طارق بن زياد ليتولى حكم ولاية طنجة . وجاءت هذه الخطوة عملا جليلا كشف

عما تحلى به موسى بن نصير من كفاءة إدارية عالية ، وسياسية مثالية أيضا . ذلك أن سكان ولاية طنجة كانوا يمثلون جماعات عديدة من قبائل البربر وفي استطاعة شخص من أهل البلاد أن يؤلف قلوبهم ، وينظم حياتهم في ظل العهد الإسلامي الجديد . وترك موسى بن نصير مع طارق بن زياد حامية في طنجة بلغ عددها ١٧٠٠ جندي ، وكذلك نفر من فقهاء العرب لتعليم السكان قواعد الإسلام وأصول الشريعة . وآتت سياسة موسى بن نصير ثمارها سريعا ، فقد أقبل سكان طنجة والسوس الأدنى على اعتناق الإسلام ، والانضمام إلى القوات المرابطة هناك ، حتى بلغ عددها اثنا عشر ألف جندي ، كلهم مثال للطاعة والنظام .

ولم يبق أمام موسى بن نصير غير مدينة استعصت عليه في ولاية طنجة وهي مدينة سبتة ، مقر أمير الروم ، المسمى يوليان . ويبدو أن موسى بن نصير تعمد ألا يضع وقته أمام هذه المدينة التي صار لا حول لها ولا طول بسبب إحاطتها من كل جانب بالقوات الإسلامية . وفضلا عن ذلك فإنها قريبة من طنجة بحيث يسهل مراقبتها ومراقبة أى نشاط يصدر منها . وفي نفس الوقت كان موسى بن نصير ، وقد دانت له بلاد المغرب ، يفكر في الإفادة من مدينة سبتة ، لمراقبة سكان شبه جزيرة أيبيريا ، والاطلاع على أحوال تلك البلاد التي صارت تتجاوز أرض ولايته . فكان الإبقاء على سبتة بيد يوليان وسيلة تضمن للمسلمين دراسة الأحوال السياسية عند جيرانهم الأوربيين ، والذين لا يفصلهم عن سبتة سوى مضيق من المياه ، أطلق عليه العرب اسم « بحر الزقاق » (وهو الذى عرف فيما بعد باسم مضيق جبل طارق) . وقد شاءت الأقدار أن تثبت صدق فراسة موسى بن نصير حين أثر إرجاء السيطرة على سبتة ، إذ أصبحت هذه المدينة فعلا نافذة أطل منها العرب في بلاد المغرب على غرب أوروبا ، وهيأت لهم الأسباب لحمل راية الإسلام إلى تلك البقاع الجديدة .

وبعد أن اطمأن موسى بن نصير على اقرار الأوضاع في ولاية طنجة ، ترك بها طارق بن زياد ، وعاد الى القيروان ليكمل خطته في تأمين أرجاء الولاية الشاسعة ، التي آلت اليه . ومن القيروان رأى موسى بن نصير أن يعجل بدعم البحرية العربية وبث النشاط في أساطيل العرب ، ليطيح بالروم نهائيا من قواعدهم في الجزر القريبة من أرض المغرب ، وليمهد السبيل للسيادة العربية الاسلامية على مياه غرب البحر المتوسط . وكان السبب في هذا الاهتمام البحري هو التربية الأولى التي عاشها موسى بن نصير ، وهو في صدر شبابه ، أيام أن عمل مع والده في خدمة معاوية بن أبي سفيان . إذ شاهد اهتمام البيت الأموي بانشاء الأساطيل ، وحرص معاوية خاصة على مهاجمة الجزر القريبة من الشام والتي اتخذها الروم قواعد لهم يهددون منها سلامة الشواطئ الشامية والمصرية التي آلت الى العرب المسلمين . وتعلم موسى بن نصير من ذلك أن الامتداد البري لا يكفي لتأمين الفتوح واستقرارها ، وأن سلامة بلاد المغرب تتطلب بث النشاط البحري في مياه غرب البحر المتوسط ، وخاصة أن للروم قواعد كبيرة هناك ، وباستطاعتها ازهاق العرب والبربر في بلاد المغرب .

وزاد من إيمان موسى بن نصير بأهمية بناء بحرية عربية قوية لبلاد المغرب ما شاهده من محاولات الروم المتكررة للاغارة على شواطئ شمال افريقيا ، وقطع خطوط الامدادات والتموين ، وخاصة أيام قادة الفتوح الذين سبقوه في العمل في الميدان الافريقي . وكان من المتوقع أن يستأنف الروم هذا النشاط البحري بعد أن زالت دولتهم من شمال افريقيا ، وخاصة أنهم كانوا قد رتبوا حياتهم على أساس الاعتماد على مايرد اليهم من قمح المغرب ، وغيره من منتجات تلك البلاد ، اللازمة لأود الدولة وكيانها .

واستهل موسى بن نصير أعماله في هذا الميدان الجديد بتوسيع دار الصناعة التي سبق أن شيدها حسان بن النعمان في مدينة

تونس . وكانت دار الصناعة تقوم ببناء السفن الحربية ، ويعمل بها عدد كبير من مهرة الصناع المصريين الذين سبق أن بعث بهم والى مصر عبد العزيز بن مروان الى تلك القاعدة البحرية لانشائها ، ودعم نشاطها . والى جانب ذلك نظم موسى حركة الملاحة فى هذه القاعدة البحرية ، بما يكفل لأساطيل العرب فيها الحماية والسلامة . فكانت قاعدة تونس تقع على بحيرة بالقرب من شاطئ خليج قرطاجنة ، وتسير السفن من تونس فى البحيرة ، وتخرج الى مياه البحر المتوسط عن فتحة فى البحيرة يقع عليها مرسى يعرف باسم « رادس » . ولما كانت البحيرة ضحلة لا تسمح أحيانا بمرور السفن الحربية ، فقد أمر موسى بن نصير بشق قناة بين مرسى رادس والقاعدة فى تونس ، طولها اثنا عشر ميلا . وبفضل هذه القناة أصبحت المدينة نفسها مشتمى للمراكب الحربية تحفظها من العواصف والأنواء . وبالإضافة الى ذلك كان يمكن اغلاق هذه القناة عند اتصالها بالبحر بواسطة سلسلة قوية ، على نحو ما كان متبعاً فى المدن البحرية فى العصور الوسطى .

ونتيجة تلك التنظيمات التى قام بها موسى بن نصير ازداد عمران تونس ، وبدأت تحقق الهدف من انشائها ، وهى « أن تكون قوة وعدة للمسلمين الى آخر الدهر . . وأن يصنع بها المراكب ولتجاهد الروم فى البر والبحر ، وأن يغار منها على ساحل الروم » . ثم قامت الدعايات لحث المجاهدين على المراقبة فى هذه القاعدة ، ومن أمثلة ذلك ما يقال من أن علماء المشرق كتبوا الى أهل إفريقية : « من رابط عنا برادس يوماً واحداً حججنا عنه حجة » . وتكشف الرواية الأخيرة عن مدى اهتمام المشرق العربى بشقيقه المغرب فى هذه الفترة المبكرة من تاريخه ، وتشجيع النشاط البحرى لحماية هذه الرقعة الجديدة من دار الاسلام .

وبدأ موسى بن نصير يخطو بنشاطه البحرى من نصر الى نصر . ذلك ان الأساطيل العربية من المغرب نجحت فى صد عدوان الروم

عن شواطئ شمال افريقيا ، وقضت على سياسة هذا العدو في قطع مواصلات العرب في تلك الأرجاء الشاسعة . وتردد صدى ذلك في ازدياد عمران القيروان وازدهار الحياة فيها . اذ وقفت قاعدة تونس البحرية تحميها ، وتجنبها ما سبق أن تعرضت له من كر الروم وعملائهم ، واخراج القوات العربية منها . والمعروف ان الاستقرار والطمأنينة من العوامل الهامة التي تساعد على اتساع المدن وتقدمها في ميدان الحضارة . ومن ثم بدأت القيروان تجنى على عهد موسى بن نصير ثمار نشاطه البحري المبكر ، وتتفرغ لأداء رسالتها في نشر الثقافة العربية الاسلامية بين السكان الأصليين . ولم يكتف موسى بن نصير باتباع سياسة الدفاع البحري ، وانما أعد الأساطيل لتقوم بالهجوم على قواعد الروم القريبة من شمال افريقيا ، ويثبت لهذا العدو الخطر أن يد العرب القوية وراءهم في كل مكان ، وليحطم كل فكرة قد تراود الروم في الهجوم على المغرب أو الاتصال بأهله . واستهدفت سياسة موسى بن نصير الهجومية الاستيلاء على جزيرة قوصرة ، وهي المشهورة اليوم باسم « بنطلارية » ، لأن تلك الجزيرة قريبة من تونس ، ومن ثم تتمتع بموقع ممتاز يساعد على الدفاع عن شمال افريقيا . وفي الوقت نفسه تقترب تلك الجزيرة من جزيرة صقلية التي كانت تمثل القاعدة الكبرى لأسطول الروم في غرب البحر المتوسط ، ولذا تصلح قوصرة لأن تكون مركزا لمناورات هذا الأسطول وشغل حركات الروم ، ومراقبتها في الوقت نفسه .

وأشاد الجغرافيون والرحالة العرب بهذا الموقع الممتاز لجزيرة قوصرة : « لأنها قبالة افريقية بالقرب من تونس ، وبينها وبين صقلية مجرى » . وبذلك كشف اتجاه المسلمين البحري في بلاد المغرب عن أهمية تونس ، وعن عبقرية موسى بن نصير في هذا الميدان الحربي الجديد . اذ صمم هذا القائد على الاستيلاء عليها سنة ٨٨ هـ / ٧٠٧ م ، وانتدب لقيادة الحملة البحرية التي أعدها أحد رجاله الأبطال ، وهو عبد الملك بن قطن الفهري . اذ خرج هذا

القائد على رأس أسطول قوى من تونس ، واستولى على جزيرة قوصرة ، وضمها الى ولاية افريقية .

وسرعان ما ظهر نشاط الأسطول العربى من قاعدته فى جزيرة قوصرة . اذ خرجت سفنه منها تباعا ، وأغارت على صقلية ، وأنزلت بها وبأسطول الروم الراسى فى موانئها التخريب والتدمير . ووقفت تونس وراء هذا النشاط البحرى كله ، فقد أنتجت دور الصناعة فيها السفن على اختلاف أنواعها ، وشحنها بالعدة والعتاد لنشر راية الاسلام . وكان من أشهر حملات الأسطول العربى على صقلية الحملة التى قام بها عياش بن أخيل اذ أغار على مدينتى سرقوسة ، وغنم « جميع ما بها ، وقفل سالما » ، بعد أن أنزل الرعب فى نفوس بحارة الروم وأمراء بحارهم .

واتسم النشاط البحرى الذى أعده موسى بن نصير بقيام تعاون رائع بين أساطيل المغرب وأساطيل مصر . اذ تعاونت السفن الحربية من هذين القطرين على ضرب الروم فى قواعدهم بغرب البحر المتوسط ، دون خشية أو رهبة . فكثيرا ما اقتضت العمليات الحربية البحرية القيام باغارات فى أوقات غير مناسبة ، بسبب رداءة الجو ، ولكن تحت ضغط مقتضيات الظروف ، ولتأديب الروم . ومن ذلك الحملة البحرية التى خرجت من مصر وعلى رأسها عطاء ابن رافع الهزلى ، اذ تعاونت مع أسطول المغرب فى الاغارة على جزيرة سردانية وقد تحطم كثير من سفن الأسطول العربى أثناء عودته بسبب اضطراب الأحوال الجوية وبعث موسى بن نصير حملات تفتيشية على الشاطئ لانقاذ الأشخاص الذين قذفت بهم الأمواج . ولم يعد موسى بن نصير يسمح بمثل هذه الاغارات حفظا عن سلامة البحارة وأساطيلهم .

ولم يلبث موسى بن نصير أن وجه النشاط البحرى من تونس وجهة جديدة كان لها أثرها البعيد فى خلق ميادين جديدة شاسعة أمام المسلمين . فبعث أساطيله لمطاردة الروم فى قواعدهم بجزر

ميورقة ومنورقة ، وهى التى تقع على مقربة من أسبانيا ، التى حكمها اذ ذاك دولة القوط الغربيين . واستطاعت الأساطيل العربية المغربية السيطرة على تلك الجزر ، وتأمين بلاد المغرب الأقصى من اغارات الروم البحرية المفاجئة ، وأصبحت شواطئ شمال افريقيا تنعم بالازدهار والاستقرار .

غير أن هذا الفوز نقل المسلمين فى بلاد المغرب من الميدان الافريقى الى ميدان جديد آخر ، عظيم الروعة والاتساع . اذ فتح أعين موسى بن نصير على رقعة كبيرة من بلاد غرب أوربا ، وهى شبه جزيرة أيبيريا ، وبدأ يفكر جديا فى العمل على نشر الاسلام بين أرجائها . فكانت جزر ميورقة ومنورقة قريبة من الساحل الشرقى لاسبانيا ، وتصلح لأن تكون بدورها قواعد للتوسع فى تلك البلاد .

وبذلك صار أمام كل من القيروان وتونس ، على عهد موسى ابن نصير ، مهمة جديدة رائعة ، وهى اعداد المسلمين للانتقال الى أوربا نفسها ، ونشر الاسلام بين ربوعها ، ولا سيما فى أبهى جهاتها وهى شبه جزيرة أيبيريا . وأخذت بلاد المغرب تدخل بذلك ميدان الحضارة العالمية ، حيث نهض بهذا الدور أهلها ، الذين تسابقوا الى اعتناق الاسلام ، ورفع رايته فى غرب البحر المتوسط .

وشاءت الأقدار ألا يمتد العُمر بوالى مصر ، عبد العزيز بن مروان ، ليشاهد بنفسه صدق فراسته وحسن اختياره لموسى ابن نصير ليتولى القيادة العليا فى الميدان الافريقى . اذ توفى هذا الوالى سنة ٨٥ هـ / ٧٠٥ م ، وموسى بن نصير فى المراحل الاولى من مجده . وفى العام التالى توفى أيضا الخليفة عبد الملك بن مروان ، ولحق بأخيه الى جوار الرفيق الأعلى . ولم يتأثر مركز موسى ابن نصير بتلك الأحداث ، لأن الخليفة الجديد ، وهو الوليد ابن عبد الملك ، سار على نهج عمه عبد العزيز بن مروان فى تشجيع موسى بن نصير ، وتقديم كل المساعدات له لاتمام رسالته العظمى فى الميدان الافريقى .

وزاد في مكانة موسى بن نصير لدى الخليفة الجديدة شدة الارتباط الذي كان بين هذا القائد وأسرة عبد العزيز بن مروان . اذ تزوج الوليد من ابنة عمه عبد العزيز بن مروان ، وخرج موسى ابن نصير مع ركب العروس الى الشام ، دلالة على علو مكانته الخاصة والعامة أيضا لدى والد العروس . وصارت زوجة الخليفة الجديد من أهم الأسباب التي ساعدت على دعم مركز موسى بن نصير ، حيث أشادت به وبخدماته لآل بيتها .

وأصبح موسى بن نصير ينعم بمركز ممتاز في مقر ولايته الجديد ، جعله حريا أن يلقب باسم « أمير القيروان » . وبدأ موسى بن نصير يرأس الخلافة في دمشق مباشرة بعد وفاة عبد العزيز بن مروان ، دلالة على علو شأنه . ولكن والى مصر ، الذي خلف عبد العزيز ابن مروان ، وهو عبد الله بن عبد الملك بن مروان ، عز عليه أن يتجاهله موسى بن نصير ، وخاصة أن عبد الله من بيت الخلافة وعريق في مكانتها . وكتب الوالى الجديد رسالة الى موسى بن نصير يؤنبه فيها على اتصاله بالخلافة مباشرة ، ويحاول أن يسفه من قدره . وجاء في تلك الرسالة قول عبد الله لموسى بن نصير :

« أما بعد : فانك كنت من عبد العزيز وبشر (وهو أخو عبد العزيز بن مروان) بين مهادين تعلو عن الحضيض مهودهما ، ويدفئك دثارهما ، حتى عفى مخبرك ، وسمت بك نفسك ، فلا تحسبني كمن كنت تخلبه ، وإيم الله لأضعن منك رفعا ، ولأقلن منك ما كثيرا » .

ورد موسى بن نصير على عبد الله ردا قويا ، كشف عما يتحلى به من بلاغة ، ومقدرة أدبية رائعة ، فقال في رسالته :

« أما بعد : فقد قرأت كتابك ، وفهمت ما وصفت فيه من أركانى الى أبويك وعمك ، ولعمري أن كنت لذلك أهلا . ولو خبرت منى ما خبرا لما صغرت منى عظيما ، ولا جهلت من أمرنا ما علما .

وأما تهددك اياي بأنك واضع مني ما رفعا ، فليس ذلك بيدك ولا اليك ، فارعد وابرق لغيري » .

ولما وصل هذا الرد العنيف الى عبد الله بن مروان استبد به الغضب ، وكتب خطابا الى والده ، وكان اذ ذاك هو الخليفة عبد الملك بن مروان ، وأرفق به رسالة موسى بن نصير . ولكن قبل أن يصل هذا الخطاب توفي الخليفة عبد الملك ، واستلم الخليفة الجديد ، وهو الوليد خطاب عبد الملك بن مروان رسالة موسى بن نصير . وعلق الوليد بن عبد الملك على رسالة موسى بن نصير ، وموقف عبد الله بن مروان قائلا :

« لله درة (أى موسى بن نصير) ، أن كان عنده لآثرة من علم ، ولقد كان عبد الله غنيا أن يتعرض له » .

وعزل الخليفة الوليد والى مصر عبد الله بن مروان ، الذى ثبت سوء ادارته ، على حين أطلق يد موسى بن نصير فى شمال افريقيا ، وهيا له نشر الاسلام فى تلك الجهات ، ودعم أركان الدين الحنيف بين أهلها ، حتى صار يطلق على شمال افريقيا اسم « الجناح الأيسر للإسلام » .

الفصل الخامس

الجناح الأيسر للإسلام

بلاد المغرب نتيجة جهاد موسى بن نصير في عهد جديد من تاريخها ، طويت فيه صفحاتها القديمة المليئة بالفوضى والاضطرابات ، وفتحت أخرى جديدة حافلة بالطمأنينة والاستقرار . إذ ساد تلك البلاد الشاسعة الممتدة من حدود مصر الغربية الى المحيط الأطلسي السكينة والهدوء في ظل الاسلام ، فضلا عما صار لها من قوة وهيبة ورسالة حضارية في حوض البحر المتوسط الغربي .

وكانت هذه الحقيقة حدا فاصلا في تاريخ المغرب ، إذ عجزت الحضارات القديمة التي وصلت الى تلك البلاد - وهي الاغريقية والرومانية - عن ادخال السكان في نطاقها ، واقتصرت تأثيرها على بعض مدن ضئيلة ، مبعثرة على طول الشريط الساحلي لشمال افريقيا . وكان الرومان يطلقون كلمة « بربر » - على نحو ما فعل اليونان من قبل - على جميع العناصر التي لا تدين بحضاراتهم ، أو التي تأبى الدخول في ميدان تلك الحضارات . ومن ثم اطلق الرومان كلمة « بربر » على سكان شمال افريقيا الذين رفضوا في أباء وشمم الانضواء تحت لواء الحضارة الرومانية . وظل هذا الاسم شائعا حتى عصر الفتوح واستخدمه المسلمون - ليس في نفس المعنى الروماني - ولكن باعتباره علما يخلد صمود « البربر »

أمام غزو الحضارات القديمة الطاغية ، ورمزا الى اعتزاز اولئك
البربر بشخصيتهم ومقومات حياتهم .

وارتبطت بداية هذا العهد الجديد في تاريخ المغرب بموسى بن
نصير ، لأن هذا القائد أدرك أن ازدهار ولايته رهن بخلق ادارة
عربية مثالية ، قادرة على أن تحقق هدفين في وقت واحد ، أولهما :
كسب ثقة السكان الأصليين بأن تثبت لهم أن العهد الجديد يختلف
كل الاختلاف عما سبق أن شاهدوه في عهدي اليونان والرومان .
وثانيهما : العمل على نشر الاسلام بين السكان ، وإخراجهم من
ظلمات الفرقة والانقسامات الدينية الى نور الاسلام ووحدته
المثالية .

ولم يكن عمل الادارة العربية في بلاد المغرب أمرا هينا ، وإنما
كان عليها أن تعبد الطريق أولا في أناة وصبر . فكان على تلك الادارة
أن تبدأ بإزالة الرواسب التي تخلفت عند سكان البلاد نتيجة الطغيان
الذي تعرضوا له سنين طويلة من أصحاب الحضارات القديمة التي
وفدت الى بلادهم . وتمثلت تلك الرواسب فيما انطوت عليه
نفوس الأهالي من خوف وكرهية لكل لون من ألوان السلطان .
وكانت بلاد المغرب قد آلت قبل أن يمتد اليها الفتوح العربية الى
دولة الروم ، التي ورثت سياسة أمها الامبراطورية الرومانية الكبرى
في تلك البلاد ، وهي العمل على سلب ثروات الأهالي ، وتسخيرهم
في جميع الأعمال دون شفقة أو رحمة .

وبلغت مساوئ الروم أقصاها في الفترة التي دخل فيها العرب
المسلمون بلاد المغرب . ذلك أن الروم بعد أن فقدوا مصر ، التي
دخلت في حظيرة الاسلام ، ركزوا استغلالهم على بلاد المغرب . إذ
كانت مصر تمد دولة الروم بالفلال ، فأصبحت بلاد المغرب هي
المصدر الباقي للروم ، الذين ازداد ضغطهم على أهل المغرب للعمل
في الحقول ، ثم نهب نتاج أيديهم ليعيش عليه سكان العاصمة

القسطنطينية . ولم يكتف الروم بذلك ، وانما جاهدوا في جمع المال ، فقد أصبحت الضرائب هي الغاية الوحيدة للإدارة وعمالها ، الذين بالغوا في عسفهم بالسكان . ومن ثم لم يجد المواطنون بدا من ترك مزارعهم ومتاجرهم والنجاة بأنفسهم . وزاد الحال سوءا في المغرب أن الروم عمدوا الى احاطة ممتلكاتهم في تلك البلاد برباطات قوية من الحصون المتقاربة ، واقامت في كل رباط طائفة من الجنود للدفاع عنه . وأسرفت ادارة الروم في ذلك اسرافا شديدا ، فلم تكتف برباط واحد ، بل اقامت ثلاثا وأصبحت البلاد شبكة من الحصون والقلاع .

واخطأت ادارة الروم في تلك السبيل ، اذ أشعرت الأهالي بسوء نيتها ، ونشأت بين الجانبين حالة من العدا والكرهية . فكانت الرباطات وكثرة الجند بها سببا في حمل الأهالي على أن يقفوا من الروم موقف العدا ، وأن يبدوا كل ما يتصل بهم من حضارة ولغة . وفي الوقت نفسه قسمت الرباطات البلاد قسمين : القسم الأول الساحلى الذى تجلت فيه ادارة الروم وحضارتهم ولغتهم ، والقسم الثانى الداخلى ، الذى بقيت فيه جماعات السكان الأصليين « أى البربر » محتفظة بما لها من شخصية واستقلال . وخلق هذا التقسيم حالة مستمرة من الاحتكاك بين الروم والبربر ، الذين ازدادت هجماتهم على الرباطات والاستيلاء عليها واحدة فواحدة . واضطر الروم الى الانسحاب أمام هجمات البربر حتى صار سلطانها مقصورا على شريط ساحلى ضيق ، تعيش مدنه في حالة من الخراب والفوضى الشاملة .

وواجهت الادارة العربية على عهد موسى بن نصير هذه الحالة الموحشة لبلاد المغرب ، تلك الحال التى ألجأت أهلها الى السكون بعد أن أفقرتهم المنازعات المتعددة وارهاق عمال الروم . فاتجهت الادارة العربية الى بث الحياة في السكان ، وذلك بالعمل على تكريمهم ورفع شأنهم ، والتأكيد لهم بأن النظام الذى وضع للبلاد

فى العهد الجديد يهدف الى حماية حقوقهم وأموالهم من عدوان الحكام . وكانت هذه السياسة العربية هى النافذة التى أطل منها البربر على حقيقة الإدارة الجديدة ، والطريق الذى جذبهم الى عمالها ، والسبيل الذى استأصل من نفوسهم ما سبق أن غرسه الروم فيها من كراهية للسلطان ورجاله .

وحرص موسى بن نصير على أن يضرب المثل بنفسه على سهر عمال الإدارة العربية على مصالح السكان ، ومشاركتهم فى السراء والضراء . فروت المراجع أن موسى بن نصير دأب على الخروج لمواساة الناس فى أثناء المجاعات التى مضوا لها ، وتنظيم الأقوات اللازمة لهم . فخرج مع الناس مرة الى الصحراء للاستسقاء ، ومعه سائر الحيوانات وأقام فيها الى منتصف النهار ، ثم صلى وخطب فى الناس ، ولم يذكر بن عبد الملك . فقليل له : ألا تدعوا لأمير المؤمنين . فقال : هذا مقام لا يدعى فيه لغير الله تعالى » . واستجابت السماء لصلاة الاستسقاء ، وانهمرت الأمطار ، وبدأت البلاد تعمر بالزروع والأقوات .

وبذلك وضع موسى بن نصير الأساس السليم للإدارة العربية ، وهى العمل على احترام المواطن المغربى والسهر على خدمته ومطالبه . ونجحت الإدارة العربية بذلك نجاحا باهرا ، وزاد هذا النجاح قوة وانطلاقا السياسة الرشيدة التى انتهجتها الإدارة العربية فى تحديد علاقاتها بسكان شمال إفريقيا بعد استقرار الفتوح . اذ اعتبرت الأراضى التى كانت للروم أراضى مفتوحة عنوة ، واعتبروا من بقى من الروم وتابعيهم موالى يتصرفون فى شئونهم كما يريدون ، على حين اعتبروا الأراضى التى كانت تابعة « للبربر » ، وهم السكان الاصليون للبلاد ، أراضى مفتوحة صلاحا ، وتركوها فى يد أصحابها يؤدون عنها المال للدولة ، واعتبروا البربر أنفسهم أحرارا ، لهم ما للعرب من حقوق ، وعليهم ما عليهم من واجبات .

واقضى هذا الأمر اثاحة أكبر قدر من الحرية للبربر في تصريف شئونهم ، وهو الأمر الذى لم يالفوه من قبل على عهد الروم . فتركت الادارة العربية لكل قبيلة من قبائل البربر « خطة » ، تتصرف فيها وتؤدى مالها وتكون مسئولة عنها . وجاءت هذه الخطوة السديدة ثمرة لدراسة العرب لأحوال السكان من البربر ، لأن هذا النظام يتفق مع طبيعة البلاد ونظام أهلها الاجتماعى ، وجعلت حلقة الصلة بين رجال الادارة العربية وأهل القبائل وثيقة العرى ، تقوم على أساس من الاحترام المتبادل والثقة الكاملة .

ونظمت الادارة العربية على عهد موسى بن نصير أساليب الامتزاج الفعلى بين العرب والبربر ، وذلك باتاحة الفرصة أمام السكان الأصليين للاشتراك فى الجيوش العربية . وكان القادة الذين سبقوا موسى بن نصير من أمثال عقبة بن نافع الفهري وحسان بن النعمان قد سلكوا تك السبيل . ومن ثم وضعت الادارة العربية القواعد التى تكفل للبربر المساواة بالعرب بشكل عملى ودقة كاملة . فسوت الادارة العربية بين العرب والبربر فى تقسيم مغانم الحروب ، وما يرتبط بذلك من حقوق . ومهد ذلك التمهيد لغرس بذور الحضارة العربية الاسلامية فى بلاد المغرب . فكان تقسيم الغنائم بالتساوى يشرح للبربر رسالة الاسلام ، وهى أن العربى ليس حاكما وزميلة من البربر محكوما ، وانما الاثنان سواء فى الحقوق والواجبات ، والاشتراك فى الحروب والجهاد فى سبيل الله .

وكان للادارة العربية دواوين تنفذ سياستها فى بلاد المغرب ، وتتولى الاشراف على مصالح العرب والبربر على قدم المساواة . وكان أهم تلك الدواوين ، هو ديوان الجند ، الذى ينظم توزيع « العطاء » ، أى رواتب الجند . وصار هذا الديوان يسجل أسماء الجند من أبناء المغرب ، ويصرف لهم عطاءهم كذلك . وضرب موسى بن نصير عملة من النحاس والبرنز ، لكى يعطى الجند من

العرب والبربر أعطياتهم . وكانت الخلافة الأموية أمرت بتعريب الدواوين في كل من مصر والشام والعراق ، وضربت كذلك نقودا عربية بدلا من النقود التي سبق استخدامها على عهد الفرس والروم . ومن ثم جاءت خطوات موسى بن نصير في تنظيم الإدارة العربية ببلاد المغرب- وضرب عملة عربية هناك ، جاءت سبيلا لربط هذا الشطر الجديد بالأراضي العربية في المشرق وهيأت له السير جنبا الى جنب مع قرنائهم من البلاد العربية الفتية دون تأخير أو إبطاء .

وساعد الإدارة العربية في بلاد المغرب على الانطلاق السريع في أداء رسالتها ما تمتع به موسى بن نصير من سلطان مطلق في تصريف الأمور . فكان صاحب الكلمة العليا بتفويض من الخلافة في انتقاء العمال الذين بعث بهم الى شتى جهات المغرب . وثبت أن أولئك العمال كانوا على درجة عالية من الكفاية والمقدرة لتنفيذ خطة الإدارة العربية . واستطاع موسى بن نصير احكام الرقابة الإدارية على العاملين في المغرب بفضل اعتماده على أبنائه . وأصبحت بلاد المغرب تشعر لأول مرة في تاريخها بسلطان الإدارة ، وحرص القائمين عليها في الوقت نفسه على استكمال أسباب الرفاهية والطمأنينة للأهالي .

وغدت القيروان على عهد موسى بن نصير مقر الوالى ومركز الدواوين الكبرى ، ومصدر الإدارة والسلطان . وكفل هذا التنظيم الإدارى لبلاد المغرب الاستقرار والهدوء ، وأخذ السكان بالفون العرب وادارتهم ، ويفدون على العاصمة لقضاء حاجتهم في طمأنينة وسلام . وبذلك هيأت الإدارة العربية وكفايتها السبيل أمام الاسلام لينتشر بين البربر ، الذين وجدوا فيه الخلاص من متاعبهم كلها ، سواء أكانت اجتماعية أم اقتصادية ، كما رأوا فيه الطريق الأمثل لاستعادة سالف مجدهم في ميدان الحضارة الانسانية .

ونهضت الادارة العربية برسالتها في نشر الاسلام بين البربر في جد واجتهاد . وكان الاسلام قد وجد طريقه الى نفوس تفر من سكان البلاد منذ دخلتها الجيوش العربية ، وبخاصة أيام عقبة بن نافع الفهري . ذلك ان بناء القيروان ساعد على اجتذاب من حولها من السكان الى تعليم الدين الاسلامي ، وبخاصة بعد أن تهيأت لهم أسباب الاتصال بالعرب . وفضلا عن ذلك فان سياسة قادة العرب في اشراك جند من البربر مع جند من العرب في الفتوح والحرص على المساواة بين الفريقين في المغام والعطاء ، هيا السبيل لانتشار الاسلام في قوة وايمان بين البربر ، الذين وجدوا في العرب اخوة في الدين ، لا طغاة مستبدين .

ولم يجد العرب في الوقت نفسه أية صعوبة تحول بينهم وبين الاختلاط بالبربر ، وانما وجدوا أحوال أولئك السكان تشجع على الامتزاج السريع بهم ، والانصهار معا في بوتقة الدين الاسلامي . ذلك أن العرب رأوا انفسهم أمام سكان يجمع بينهم وجه شبه عظيم جاء وليد الاتفاق بين البيئة التي ينتمى اليها كل منهم . فطبيعة بلاد المغرب ، التي يغلب عليها الطابع الصحراوي أشبه بطبيعة بلاد العرب ، وهو الأمر الذي ترتب عليه نتائج ذات طبيعة متشابهة من حيث الاجتماع والعمران . فالبربر عرفوا التنظيم القبلي مثل العرب ، وعرفوا حياة الحضر والاستقرار ، كما عاشوا في حياة التنقل والبداءة . وانتج هذا التشابه في العمران عادات وتقاليد مؤتلفة ، كما ساعد على خلق عبقرية متجانسة تربط بين أصحابها في سرعة ويسر .

وشاهد العرب بذلك أن البربر ينقسمون قسمين : سكان الوبر ، أي سكان الخيام ، وسكان المدن ، أي سكان البيوت . ويقال للقسم الأول « البتر » وهم أهل البداءة والرحلة ، وللقسم الثاني « البرانس » ، وهم أهل الاستقرار والاتصال بأسباب الحضارة ، وبدأ الاسلام في الانتشار أولا بين قبائل البتر ، وهي القبائل التي

تسكن المناطق الجنوبية من المغرب بسبب كثرة وجه الشبه بينها وبين العرب . واشتهر من تلك القبائل التي عرفت بالسبق الى اعتناق الاسلام : زناته ، ونفوسة ، ومصمودة .

وامتدت ارض تلك القبائل في المنطقة من حدود مصر الى المغرب الأوسط ، وهي منطقة شاسعة تحتاج الى تنظيم لدعم اركان الدين الاسلامي بين اهلها . اذ اقتصر الأمر قبل قيام الادارة العربية على عهد موسى بن نصير ، على اسلام نفر من سكان تلك القبائل نتيجة اتصالهم بالجند العرب ، ثم بقائهم على دينهم اما سرا أو جهرا ، كل حسب ايمانه ، وموقفه بعد ارتداد الجيوش الاسلامية عن شمال افريقيا . ولكن باستقرار الأوضاع على عهد موسى ابن نصير بدأ المسلمون من البربر يعلنون ايمانهم وحماستهم للدين الجديد ، ويعملون على حمل لوائه بين جيرانهم من أهل البلاد ، وبخاصة بعد اشتراكهم مع الجيوش العربية في الفتوح .

وأخذ الاسلام ينتشر سريعا من الجهات الداخلية لبلاد المغرب الى المناطق الساحلية ، وانتهى الأمر بربوخ الاسلام في « افريقية والمغرب الأوسط » . وتوج موسى بن نصير جهاده في تلك السبيل بنشر الاسلام في المغرب الأقصى كذلك . وأشارت المراجع الى هذه الحقيقة الهامة في تاريخ البلاد . فقد ذكرت أنه في عهد موسى ابن نصير « تم اسلام المغرب الأقصى » ، وحول المناير هناك « (أي بيوت العبادة القديمة) الى القبلة ، وجعلوا المناير في مساجد الجماعات ، ومنها مسجد أغمات هيلانة » .

وساعد على اقتلاع جذور المعتقدات الدينية القديمة من السكان المحليين ، وتثبيت اركان الدين الاسلامي في نفوسهم الطريقة المثلى التي سار عليها موسى بن نصير منذ مطالع عهده بالمغرب ، وهي تعيين الفقهاء للمدن التي يفتحها ، يعلمون الناس هناك القرآن وقواعد الاسلام . ومن أهم الخطوات التي اتخذها في تلك السبيل أنه بعد أن فتح طنجة ترك بين سكانها «سبعة عشر رجلا من العرب

يعلمونهم القرآن » ، وليثبت أركان الدين الجديد في هذا الطرف الشمالي من بلاد المغرب .

وصاحب انتشار الاسلام بين البربر سزعة تعلمهم اللغة العربية كذلك . فقد حرص العرب منذ دخلوا في شمال افريقيا على اقامة معاهد صغيرة ملحقة بالمساجد لتعليم ابنائهم ، يدرسون فيها القرآن والحديث والدين واللغة . ووقد نفر من البربر على تلك المعاهد لتلقى العلم فيها . واتضح اهمية هذه الخطوة الهامة منذ اسس العرب القيروان ، فكان « أول ما أنشأوا الدور والمساجد ، ثم التفتوا الى تعليم صبيانهم ، فاتخذوا لهم محلا - كتابا - بسيط البناء يجتمعون فيه لقراءة كتاب الله العزيز » . وكان انشاء هذه الكتاتيب منذ زمن مبكر في بلاد المغرب سببا في سرعة انتشار اللغة العربية بين سكانها الأصليين ، وبخاصة بفضل ما تحلى به العاملون فيها من خلق رفيع واخلاص في العمل . فترك أولئك المدرسون اثرا طيبا في نفوس أبناء البربر ، الذين ظاوا يرددون المآثر الجليلة التي شاهدوها في أولئك المدرسين . فقال أحد رجال البربر : « كان سفيان بن وهب ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم يمر بنا ونحن غلمة بالقيروان ، فيسلم علينا في الكتاب ، وعليه عمامة قد أرخاها من خلفه » .

وأسهمت هذه المعاهد التعليمية في انتشار اللغة العربية سريعا بين البربر ، الذين استجابوا لتلك اللغة ، ووجدوا فيها سبيلا يجمع كلمتهم . ذلك أن أهل المغرب كانوا في حاجة الى لغة يتفاهمون بها كلهم ، وطريقة يكتبون بها ما يريدون التعبير عنه . ولما كانت اللغة العربية هي لغة القرآن الكريم ، فإن شدة ايمانهم بالاسلام ، ورغبتهم الشديدة في قراءة الكتاب الكريم دفعتهم على الاقبال الى تعلمها واجادتها . ووجد البربر في العرب الذين أقاموا بين ظهرانهم نماذج رفيعة في أداء اللغة العربية السليمة والنطق بها . اذ أجاد

العرب الخطابة والتعبير ، وتركوا للبربر صورا ناصعة يمكن محاكاتها وتقليدها في ميدان اللغة .

وكانت النتيجة الهامة لهذه السياسة اختفاء العنصر اليونانى والرومانى من بلاد المغرب ، حتى اختفت آثارهم من البلاد ، ولم تبق الا آثار قليلة من مظاهر الحضارة القديمة فى الجريد ونواح ساحلية أخرى . ولم تلبث هذه المظاهر الباهتة أن اختفت بدورها تبعا لاختفاء اللغات اليونانية والفينيقية واللاتينية ، التى كان يستعملها الروم ومن تأثر بهم من السكان . وأثبتت ادارة موسى ابن نصير قدرتها على دفع بلاد المغرب الى التطور العظيم الذى مازال يكلل حياة سكانها الى اليوم . فلم تعد تلك البلاد شريطا ساحليا يسكنه جماعة من المستعمرين المتحضرين ، وفيما وراءهم فى داخل البلاد سكان بعيدون عن الأخذ بأسباب الرقى ، وانما أصبحت بلاد المغرب وحدة متماسكة ، تشرف عليها ادارة مثالية ، ويسكنها شعب مسلم قوى تنتشر بين أفرادهِ روابط المودة والألفة .

وبذلك اكتملت للمغرب جميع الأسباب ليصبح قطرا عربيا اسلاميا ، بدأ يأخذ طريقه الى جانب البلاد العربية فى المشرق ، ليمثل دوره المجيد فى تاريخ الاسلام والحضارة العالمية .

وظهرت ثمار هذا التطور الهام فى بلاد المغرب مبكرة ، وعلى عهد موسى بن نصير عندما خلق من أبنائها جندا يتسابقون فى رفع راية الاسلام ونشر الويته بالحماسة التى قام بها العربى الأول الذى خرج من موطنه بشبه الجزيرة العربية على عهد الخلفاء الراشدين .

ذلك أنه أتاح للتطور الطبيعى لعلاقة العرب بالبربر نتيجة لم تشاهدها بقعة أخرى من البقاع التى امتدت اليها الفتوح العربية ، حين عهد بالقيادة العليا للجيش المربط فى طنجة الى رجل من البربر المسلمين ، وهو طارق بن زياد ، وخوله ساطعات حربية مطلقة ، وسياسية وادارية كذلك . والأمر الجدير بالاهتمام

هنا ، هو أن القيادة العليا التي مارسها طارق بن زياد لم تقتصر على جند من البربر ، وإنما عمل تحت امرته جند من العرب ، وهو سبق انفرد به موسى بن نصير ، وكشف لمواطنيه والبربر على السواء أن مفهوما جديدا للقومية العربية بدأ يأخذ طريقه للوجود . فلم يعد العربي هو كل من خرج من جزيرة العرب ، فان كل من يتكلم بالعربية ، ويعمل من أجل أهدافها فهو عربي ، وأن الأمة العربية الفتية لا تفرق - على هذا التعريف - بين قائد وآخر ، فالكل أبناء برة لها سواء أكان من قادة الفتوح الأولى أمثال خالد بن الوليد وعمر بن العاص ، أم كان من القادة المتأخرين أمثال موسى بن نصير وطارق بن زياد ؛ وهذا الأخير هو عنوان العروبة بمفهومها المبكر الجديد .

ويعتبر ظهور طارق بن زياد على مسرح التاريخ العربي الاسلامي أجل تقدير لرسالة موسى بن نصير في بلاد المغرب ، وخير شاهد على ما تحلى به هذا القائد الفذ من عبقرية وإخلاص في أداء واجبه . إذ نقل راية الجهاد من أيد عربية أمينة الى أيد عربية أخرى فتية ، في روح من المحبة والمودة والتعاون المثالي . وكان من حسن طالع الاسلام أن تتم هذه الخطوة الرائعة في هذه المرحلة من انتشار الدين الحنيف . إذ صار الاسلام بعد فتح شمال افريقيا يطل على أرض جديدة هي أوروبا ، التي سكنتها عناصر لم يسبق للعرب الذين خرجوا من شبه الجزيرة معرفتها أو خبرة أحوالها .

ولذا كانوا في هذه المرحلة الثانية من فتوحهم في شمال افريقيا في حاجة الى قيادات جديدة شابة ومؤمنة برسالة الاسلام وأهدافه السامية .

وكان اظهر موسى بن نصير لشخصية طارق بن زياد سبيلا أتاح للعرب والاسلام بناء طبقة جديدة من القادة القادرين على مواجهة الامتداد الجغرافي الشاسع في غرب أوروبا ، والسيطرة على تلك البلاد في سهولة ويسر .

الفصل السادس

نافذة على الأندلس

موجة الفتح الاسلامي بعد استيلائها على بلاد المغرب في حركة أخرى قوامها الانتقال الى شبه جزيرة ايبيريا . وكان هذا الامتداد الجديد لموجة الفتوح الكبرى أمرا طبيعيا اقتضته العوامل الجغرافية



والسياسية في ذلك الوقت . فقد تطلع موسى بن نصير بعد استقرار الادارة العربية في شمال افريقيا الى اسبانيا . اذ عرف هذا القائد الخير أن القطر الافريقي الجديد الذي آل الى المسلمين يكون مع اسبانيا وحدة جغرافية متماسكة الأطراف ، وأن الأوضاع الطبيعية والملايسات التاريخية تحتم على القوة التي تبغى لنفسها السلامة والطمأنينة في شمال افريقيا ألا تغض الطرف عن اسبانيا .

ودعمت الأحداث على مر العصور هذه الآراء التي وصل اليها موسى بن نصير ، وشجعته على أن يبادر بتتبع الأحداث في اسبانيا تمهيدا لفتح أرجائها . فقد أجمع الجغرافيون على أن جبال البرانس هي الحد الفاصل بين بلاد المغرب وأوربا ، قاصدين بذلك أن شبه جزيرة ايبيريا إنما هي امتداد لشمال افريقيا وليست رقعة من أوربا . وبنى الجغرافيون اقوالهم على حقائق واضحة : منها أن جبال البرانس تمتد بين اسبانيا وفرنسا ، من ساحل البحر المتوسط الى المحيط الأطلنطي ، بحيث تشغل مساحة كبيرة طولها ١٤٥ كيلو مترا ، ويصل ارتفاع بعض قممها الى حوالي ٣٤٠٠ متر .

فصار هذا الامتداد الجبلى سدا يحول بين اسبانيا وفرنسا ، ثم ان الممرات به قليلة وتكوينها صعب ، حيث تتألف من تقابل بعض الوديان التى تنحدر من أعالى الجبال نحو الشمال والجنوب ، فلا تسهل بالتالى عملية الانتقال فيها . وعرفت تلك الممرات فى القسم الأوسط باسم الأبواب ، وقد أطلق على كل منها بالفرنسية اسم « بورت » ، أى باب ، ومنها اشتق العرب فيما بعد اسم « جبال ألبرت » للدلالة على جبال البرانس .

ونتيجة لهذا الحاجز الجغرافى المانع صارت شبه جزيرة أيبيريا تقبل بوجهها على بلاد المغرب ، وتولى ظهرها الى أوربا ، وتتشابه مع هذا القطر الافريقى فى كثير من المعالم النباتية والحيوانية . فالبيئة فى منطقة طنجة وسبته تتفق مظاهرها مع الجزيرة الخضراء ومنطقة جبل طارق باسبانيا ، حتى أن المسافر عبر تلك الجهات لا يلمس فارقا يجعله يشعر أنه قد انتقل من بيئة افريقية الى بيئة أوروبية . ثم ان المسافة التى يجتازها هذا المسافر لا تتجاوز خمسة عشر كيلو مترا فى بعض نواحيها ، مما يجعل الاتصال بينهما سهلا ميسورا . وأكدت الأحداث السياسية صدق هذه المعالم الجغرافية ، فما من قوة سياسية يعلو نجمها فى بقعة ما من بلاد المغرب أو شبه جزيرة أيبيريا الا وبسطت نفوذها وسلطانها على الطرف الآخر . وبذلك صارت أنظار المسلمين تتجه صوب شبه جزيرة أيبيريا منذ احتلوا طنجة وغيرها من الجهات الافريقية ، التى بدت أمامهم جزءا متما لشمال افريقيا .

وكان موسى بن نصير - بعد أن تم له فتح المغرب - وأحس بأهمية الأندلس ، يعد من القيروان الخطط لنشر الاسلام فى هذه البقعة من أرض أوربا ، ويجمع الأخبار عنها ، ويستفسر عن أحوالها . وصارت مدينة طنجة مركز عمليات موسى بن نصير فى تلك المرحلة الاستطلاعية بسبب قربها من اسبانيا ، ولموقعها المباشر على بحر الزقاق (مضيق جبل طارق) المؤدى الى تلك البلاد

الأوربية . وأقام في طنجة منذ تم فتحها أشهر قادة البربر المسلمين وهو طارق بن زياد ، الذى صار الساعد الأيمن لموسى بن نصير فى إعداد خطة فتح اسبانيا ، وفى سائر العمليات الحربية الكبرى التى تطلبتها تنفيذ تلك الخطة .

وساعد طارقا فى تلك المرحلة عاملان ، أولهما : أنه من البربر ، السكان الأصليون لأفريقية ، والخبرين بأحوال اسبانيا وما حفلت به من خيرات وثورات . وثانيهما أنه من طلائع الجناح الأيسر للإسلام ، وثمره من ثمار القوة الجديدة للدولة العربية الإسلامية . فهو من قبيلة نفزاوة ، ومن أسرة اشتهرت بسبقها الى اعتناق الإسلام . اذ أسلم والد طارق أيام عقبة بن نافع الفهري ، والتحق هو بعد وفاة والده بخدمة المسلمين ، وكان اذ ذاك صغير السن ، ولكنه تمتع بقدر كبير من الحماسة والغيرة على الدين الإسلامى ، الأمر الذى جعله من أشد المقربين الى موسى بن نصير ، ومن الطبقة الأولى من رجال البربر الذين اختصهم بسرهم وثقتهم المطلقة ، وأشركه مشاركة عملية فى رفع راية الإسلام .

وأثبت طارق أنه عند حسن ظن موسى بن نصير ، وخير أمين على تنفيذ خطته التى بدأ يعدها لفتح اسبانيا . ذلك أن موسى بن نصير « كما سبق ذكره » ، بعد أن فتح طنجة ، اتجه الى مدينة سبتة ، التى حكمها اذ ذاك رجل من الروم يدعى يوليان . ولكن هذه المدينة استعصت عليه ، فأثر أرباء الاستيلاء عليها ، وكلف طارق ابن زياد الذى عينه على طنجة مهمة الاتصال بهذا الحاكم ، وجعل سبته نافذة يطل منها المسلمون على اسبانيا ودراسة أحوالها . وكشف موسى بن نصير بذلك عن مقدرة سياسة فائقة حين أثر العمل فى هذه المرحلة بطريق غير مباشر ، وتقديم طارق بن زياد للقيام بالعمل فى هذه الجبهة . ذلك أن طارقا كان أجدر على الاتصال بالبربر التابعين لحاكم سبتة ، وكلهم ممن خروا اسبانيا وتنقلوا بين أرجائها .

ولم تلبث تطورات الأوضاع في سبته أن هيات لطارق بن زياد السير قدما في سبيل تنفيذ خطط موسى بن نصير . فقد رأى يوليان ، حاكم سبته ، أن الحكمة تفرض عليه التقرب من القوة الإسلامية الجديدة التي صارت تجاور أملاكه مباشرة ، وأن يقيم معها علاقات ودية تعوضه عن الضعف الذي دب الى سلطانه في سبته . وكان يوليان أصلا عاملا من عمال دولة الروم ، وحكم اقليم مرطانية الطنجية بحكم كونه قائدا عاما ، مفوضا من قبل الامبراطور . وتولى يوليان ادارة هذا الاقليم وهو في سن صغير ، ثم طال به الزمن دون أن تتمكن دولة الروم من عزله أو استبدال غيره به ، بسبب انشغالها بالحروب ضد العرب المسلمين الفاتحين في شمال افريقيا .

وأصبح يوليان مطلق التصرف في ولايته ، وله صلات ودية كثيرة مع أهلها من البربر وزعماء القبائل المجاورة له ، حتى صار خبيرا بتقاليدهم وعاداتهم . وأجاد القيام بها الى درجة جعلته يبدو كأحد أبناء البلاد الأصليين ، لا تابعا لامبراطورية الروم ، ولا يمكن كشف حقيقة لونه السياسي في سهولة ويسر . فاختلط على كثير من المؤرخين أمر يوليان حتى ذكر البعض أنه من البربر ، على حين قال البعض الآخر انه من رجال القوط دون أن يفتنوا الى تبعيته أصلا لامبراطورية الروم .

ولما انهار سلطان الروم في « افريقية » بعد الفتوح العربية ، أخذ يوليان يعمل على تقوية روابطه بدولة القوط في أسبانيا ، على نحو ما فعل مع جيرانه من البربر ليدعم مركزه ويحفظ أملاكه . ورحب ملك القوط اذ ذاك ، واسمه « غيطشنة » بولاء يوليان ، بسبب أهمية سبته لحماية دولته . فهي تتمتع بموقع جغرافي فريد يجعلها مفتاح أسبانيا ، والحارس الذي يحميها من هجوم قد يشن عليها من الجانب الافريقى . فهي تقع قبالة الجزيرة الخضراء من أرض أسبانيا ، وتسيطر على المياه التي بينها وبين تلك الرقعة الأسبانية . هذا وتتمتع سبته بموقع طبيعي تجعلها حصنا منيعا

في استطاعته أن يقاوم زمنا طويلا أى هجوم مفاجيء قد تتعرض له .
فيوجد على بعد ميلين منها جبل موسى (نسبة الى موسى بن
نصير) ، كما يحيط ماء البحر بها من ثلاث جهات مما زاد في مناعتها
وقوتها ، هذا الى أنه قام على مقربة منها دار لصناعة السفن ، التي
استخدمت في العبور الى الأندلس .

ورأى يوليان على الرغم من دعم صلاته بدولة القوط في أسبانيا
أن تطور الأوضاع في بلاد المغرب ، واستقرار الفتوح الإسلامية
بها ، يفرض عليه حسن الجوار مع الإدارة العربية الجديدة ، وتجنب
الاصطدام بها . ولذا رحب يوليان بسياسة موسى بن نصير ، الذي
آثر عدم الاستمرار في الاستيلاء على سبته . وكان موسى قد ترك
لقائده طارق بن زياد في طنجة مهمة تنظيم علاقات الجوار مع حاكم
هذه المدينة الهامة ، الذي هو مفتاح بلاد الأندلس . ونجح طارق في
دعم صداقته ليوليان ، وبدأ يطل من هذه المدينة على أسبانيا ،
ويدرس أحوالها دون أن يثير مخاوف القوط ، أو يبعث الريبة في
نفوسهم باستعدادات المسلمين الحربية .

وسارت الأمور بعد ذلك في سبته بما ساعد موسى بن نصير
على أن يكمل دراسته الخاصة بفتح أسبانيا ، ويعرف المزيد من
الأخبار التي تهيب للمسلمين القيام بفتوحهم في هذا الميدان
الجديد . وسبب ذلك أن دولة القوط بأسبانيا تعرضت لاضطرابات
شديدة تردد صداها في مدينة سبته ، ودفعت بحاكمها يوليان الى
الانتقال من سياسة حسن جواره للمسلمين الى سياسة التحالف
والاتفاق على تحقيق المصالح المشتركة بينهما . ذلك أن أحد
كبار رجال القوط ، واسمه رودريك ، وهو الذي عرفه العرب
باسم لوذريق ، استطاع أن يطيح بالملك الحاكم ، وهو غيطشة ،
ثم اعتلى العرش .

ولم يكتف لوذريق بذلك ، وإنما أخذ يعمل على انزال أشد
الوان الأذى بأبناء غيطشة ، وسائر آل بيته . وأتت هذه السياسة

الخرقاء من جانب لوزريق ثمرة لم يكن يتوقعها على الإطلاق ، ذلك أن أبناء غيطشة حين اشتدت بهم المتاعب ، وصدت في وجوههم السبل ، أخذوا يلجئون الى جهة أخرى يستمدون منها العون والمساعدة على استرداد حقهم المسلوب . وكان موسى بن نصير قد بدأ يتطلع الى أسبانيا عن طريق نافذة سبتة . ولم تلبث الأحداث أن جعلت سبتة تقوم بدور مباشر في نقل صورة كاملة عن تلك الأحوال السائدة في أسبانيا الى موسى بن نصير ، فضلا عن قيامها بدور الوساطة بين أبناء غيطشة وموسى بن نصير .

ووجد أبناء غيطشة من يوليان حاكم سبتة رسولا الى موسى بن نصير ، وساعدا ومعاظدا لمشاريعهم بسبب سوء العلاقات التي وقعت اذ ذاك بين هذا الحاكم وبين لوزريق . وتذكر المراجع أن سبب سوء العلاقات يرجع الى اعتداء لوزريق على شرف ابنة يوليان ، التي كانت تتعلم في طليطلة . وكانت العادة قد جرت على أن يبعث كبار رجال الدولة من القوط بأبنائهم الى طليطلة ليتأدبوا بأداب البيت المالك ، وليكون ذلك سبيلا لتأليف القلوب .

وأسهبت المراجع في قصة ابنة يوليان ، فوصفتها بأنها « بارعة الجمال . فلما صارت عند لوزريق وقعت عينه عليها فأعجبته ، وأحبها حبا شديدا ، ولم يملك نفسه حتى أكرهها ، فاحتالت حتى أعلمت والدها بذلك سرا بمكاتبة خفية . فأحفظه شأنها جدا ، واشتدت حميته (غضبه) ، وقال : ودين المسيح لأزيلن ملكه وساطانه ، ولأحفرن تحت قدميه » .

ورأى يوليان أن يحتال أولا لاستدعاء ابنته من بلاط لوزريق . فخرج بنفسه في يوم من أيام الشتاء البارد ، ذون أن يأبه بمخاطر الطريق . وعندما وصل الى طليطلة أوجس منه لوزريق خيفة بسبب حضوره في هذا الوقت غير الملائم ، و « سأل عما لديه وما جاء فيه ، ولم جاء في مثل وقته ؟ » . فأجاب يوليان بأن سبب حضوره هو أن زوجته مريضة مرض الموت ، وأنها في « شدة شوقها

لرؤية بنتها التي هي عنده ، وتمنيها لقاءها قبل الموت ، والحاحها عليه في احضارها ، وأنه أحب اسعافها ، ورجا بلوغ أمنيتها منه .
وانخدع لوذريق بهذه الحجة ، وسمح لابنة يوليان بالعودة مع أبيها ، بعد أن استوثق منها بالألا تطلعه على ما حدث بينهما .

وأضافت المراجع محادثة طريفة جرت بين يوليان - في مقابلة الوداع - مع لوذريق ، تبين تهكم يوليان ، وما انطوت عليه نفسه من حقد على هذا الملك الفاسد . إذ قال لوذريق مخاطبا يوليان : إذا قدمت علينا في المرة التالية فأرجو أن تحضر معك بعض الصقور ، لأنني أحب هذا النوع من الطيور الجارحة للهو والمتعة . فقال له يوليان : « أيها الملك ، وحق المسيح لئن بقيت ، لأدخلن عليك شذائقات (أي صقور) مداخل عليك مثلها قط » . وكانت هذه الإجابة تكشف في صورة مقنعة عما أضمره يوليان في نفسه من كراهية للوذريق ، وتبين أن نيته قد انعقدت إذ ذاك على الاتصال بالعرب الذين تم لهم فتح المغرب ، وأنه كان يعنيه حين قال للملك : سأدخل عليك صقورا ما دخل عليك مثلها قط .

وبعد أن استقر يوليان ومعه ابنته في سبته بدأ يكشف عن نواياه صراحة ، وأخذ يساعد أبناء غيطشة والعناصر المناوئة للوذريق في اسبانيا . فأعد يوليان حملة نزلت اسبانيا ، واشتركت مع الثوار في أعمالهم الحربية . لكن قوات لوذريق استطاعت الحصول على النصر ودحرت حملة يوليان ، واضطرتها للعودة إلى سبته . وما أن انتهت هذه الحروب في اسبانيا عن فوز لوذريق حتى أيقن يوليان أنه لم يعد أمامه مفر من الاتجاه نحو السلطات العربية في القيروان ، وطلب مساعدتها ضد لوذريق .

وبذلك عجلت الأحداث في اسبانيا بتحويل مدينة سبته إلى نافذة يطل منها موسى بن نصير على التطورات الخطيرة التي وقعت في هذه الرقعة من غرب أوربا ، ويعرف عن طريقها في ذلك الوقت أمثل السبل لنشر الاسلام في تلك الأرجاء ، وضمها إلى الدولة

العربية الاسلامية . وكان قيام طارق بن زياد بدور الوساطة بين يوليان حاكم سبته ، وبين موسى بن نصير خطوة بارعة في ابعاد القيروان عن مثار الريب والشكوك ، وفي احكام خطط المسلمين للنهوض بالفتوح المقبلة في اسبانيا في سرية تامة . ذلك ان بلاد اسبانيا سادتها في تلك الفترة شائعات عن قوة البربر ، كما بدأت تنتشر فيها الأساطير التي تجذب انتباه سكانها الى خطر التعاون الذي جمع بين العرب والبربر في ظل العهد الجديد .

ومن الأساطير التي ترددت عن خوف أهل اسبانيا من البربر قصة ابنة حاكم مدينة قادس . وكانت هذه الفتاة في غاية الجمال ، وتسامع بها ملوك الأندلس ، وكانت الأندلس كثيرة الملوك ، لكل بلدة أو بلدين ملك ، وهذا ما يوضح مدى التفكك الإداري الذي ساد البلاد اذ ذاك ، اذ المقصود بالملك حاكم المدينة . وتقدم أولئك الملوك ، أو الحكام الى زميلهم حاكم قادس يخطبون ابنته . وخشى الوالد ان زوجها من واحد أسخط الباقين ، واستبدت به الحيرة واستولى عليه القلق .

وعندئذ استدعى حاكم قادس ابنته ، وعرض عليها الموقف ، وكانت مشهورة الى جمالها الفائق بالحكمة والعقل السليم . وقال لها والدها :

يا بنية ، انى أصبحت في حيرة من أمرك ، ممن يخطبك من الملوك ، فان أرضيت واحدا أسخطت الباقين .

فقلت الفتاة لأبيها : اجعل الأمر الى ، تخلص من حيرتك .

فقال الأب : وما تقترحين ؟

قالت : أعلن في البلاد انى على استعداد للزواج من الشخص الذي يتصف بالحكمة .

فقال الوالد : نعم ما اخترته لنفسك .

وأرسل الوالد رده على سائر الحكام الذين بعثوا يطلبون يد ابنته قائلاً لهم : « انها اختارت من الأزواج الملك الحكيم » .
ولما تسام الحكام هذا الرد أحجم كلهم عدا اثنين ، كتب كل واحد منهما الى والد الفتاة يخبره بأنه الملك الحكيم . وعاد الوالد وعرض الأمر على ابنته قائلاً :

يا بنية ، بقى الأمر على اشكاله ، اذ جاءنى رد من ملكين حكيمين ، أيهما أرضيت أسخطت الآخر » . فقالت سأقترح على كل واحد منهما القيام بعمل ، وأيهما سبق الى الفراغ من هذا العمل قبلت زواجه .

وأعجب الوالد برباطة جأش ابنته وحكمتهما ، وقال لها :
وما الذى تقترحين عليهما ؟

فقالت : أنا ساكنون فى بلد يحتاج الى حراسة دائمة وحماية مستمرة من جانب البربر الذين يقيمون على مقربة من ديارنا عبر بحر الزقاق (مضيق جبل طارق) فى مدينة سبته . وانى سأقترح على الأول ، الراغب فى زواجى أن يبنى لى طاحونا فى بلدتى تدار بماء يجلب من شاطئ بلاد البربر . وسأطلب الى الثانى أن يشيد لى نوعا من أعمال السحرة (طلسم) نحصن به جزيرة الأندلس من البربر . ووافق أبوها على هذا القول السديد ، وكتب الى الملكين بما قالت ابنته . فبعث كل منهما بما يفيد استعداداه للقيام بما طلبت فتاتهم الجميلة .

وبدا الملك الذى اختار الطاحون فى تنفيذ مهمته ، واستطاع بحكمته أن يصل عبر بحر الزقاق ما بين جزيرة الأندلس وبر البربر ، وتمكن بذلك أن يجرى الماء من هناك عن طريق ساقية كبيرة ، تدفع الماء ، فتدير الطاحون بأرض قادس .

وأما الملك الذى اختار عمل الطلسم ، فانه تأخر بعض الوقت بسبب اختيار الطالع المناسب للبدء فى العمل . ثم استطاع اقامة

بناء مربع الشكل ، أشبه بالقاعدة المتينة ، جعل عليه تمثالا من النحاس الأحمر والحديد ، على صورة رجل من البربر « له لحية ، وفي رأسه ذؤابة من شعر جعد ، قد جمع طرفيه على يده اليسرى ، وفي رجله نعل ، وهو شاهق في الهواء ، طوله ينيف على سبعين ذراعا ، وقد مد يده اليمنى بمفتاح قفل قابض عليه ، مشيرا الى البحر كأنه يقول : لا عبور . وبلغ من تأثير هذا الطلسم أنه اذا اقتربت منه سفينة من سفن البربر ، سقط المفتاح من يد التمثال ، فيتنبه اهل البلاد الى الخطر قبل أن يدهمهم .

وتستطرد الأسطورة ، فتروى أن صاحب الطاحون انتهى من عمله قبل أن يفرغ صاحب الطلسم . ولكن والد الفتاة أخفى على صاحب الطلسم هذا الخبر ، حتى لا يستولى عليه اليأس لعدم فوزه بالفتاة ، ويترك البناء ، فيبطل عمل الطلسم . ولكن صاحب الطلسم بعد أن انتهى من عمله علم بفوز صاحب الطاحون ، لأنه انتهى من مهمته أولا ، « فضعفت نفسه ، وسقط من أعلى البناء ميتا » . وحصل صاحب الطاحون على الفتاة والطلسم ، الذي وقف يحمي بلاد الأندلس من البربر .

وسرت الى جانب تلك الأسطورة قصة أخرى توضح احساس القوط الحاكمين في الأندلس باقتراب نهاية ملكهم على يد العرب . وتروى هذه القصة أنه حكم الأندلس من ملوك القوط سبعة وعشرون ملكا ، كان آخرهم لوذريق ، الذي اتخذ مقره في طليطلة العاصمة . ولما جلس على العرش ، وبدا يدرس أحوال دولته ، رأى في طليطلة بيتا عليه ستة وعشرون قفلا . فقال لوزرائه : أريد أن أفتح هذا البيت لأرى مافيه ، لأنه لم يبن عبثا . وكان لوذريق يظن أن به كنوزا ومالا وفيرا . ولكن الوزراء قالوا له : أيها الملك ، صدقت ، ان هذا البيت لم يصنع عبثا ، ولم يقفل سدى . والرأى والمصلحة تقضى بأن تقاد من سبقك من الملوك فلا تفتحه ، وتضيف إليه قفلا على نحو ما فعل كل واحد منهم اثر توليه العرش .

ولكن لوذريق كان شديد العناد ، فقال لهم : ان نفسى تنازعنى الى فتحه ، ولا بد لى من القيام بذلك . فالح عليه الوزراء مرة أخرى الا يفعل ، وقالوا له : ان كنت تظن أن فيه مالا ، فقدره ، ونحن نجمع لك من أموالنا مثل ذلك المقدار ، ولا تفتح البيت ، فيقع حادث لا تعرف عاقبته علينا وعلى البلاد . وأصم لوذريق أذنيه ، وأمر بفتح الأقفال وكان عددها ستة وعشرين قفلا ، لأنه لم يضع القفل الخاص به السابع والعشرين . فلما فتح البيت لم ير لوذريق فى داخله شيئا غير مائدة عظيمة من ذهب وفضة ، مكلفة بالجواهر ، ومكتوب عليها : « هذه مائدة سليمان بن داود عليهما السلام » ، وبجوارها تابوت عليه قفل ، ومعلق معه مفتاح . فأمر لوذريق بفتح التابوت ، فوجده فارغا ، ولكن فى جوانب التابوت « صور فرسان مصورة بأصباغ محكمة التصوير على أشكال العرب ، وعليهم الفراء ، وهم معممون ، ومن تحتهم الخيل العربية ، وهم متقلدون السيوف المحلاة » ، وفوق تلك الصور أسطر مكتوبة بلغة قديمة ، فقرئت : « فاذا فيها : اذا كسرت أقفال هذا البيت ، وفتح التابوت ، فظهر ما فيه من هذه الصور ، فان هذه الأمة المصورة تدخل الأندلس ، فتغلب عايتها وتملكها » .

وسيطر الوجوم على لوذريق ومن حوله من الوزراء ، وأمر برد الأقفال الى ماكانت اليه ، وبدأ يعمل على تحصين البلاد . ومما لا شك فيه أن هذه القصة لها مغزاها اذ أن العرب وقد أتموا فتح بلاد المغرب فى الوقت الذى جلس فيه لوذريق على العرش ، بدعوا يتطلعون الى نشر الاسلام فى الأندلس . ولذا كان من الحكمة أن يترك موسى بن نصير لقائده طارق بن زياد مهمة الاتصال بيوليان فى سبته ، حتى يخفى تماما أهدافه عن السلطات الحاكمة فى اسبانيا . وأجاد طارق أداء المهمة التى اضطلع بها ، حتى أن يوليان حين بعث الى طارق يطلب منه مساعدة العرب له ضد لوذريق لم يكن يعرف أهداف السلطات العربية فى القيروان ، واعتقد أن الأمر سوف يقتصر على طلب المساعدة منها ، مقابل تقديم بعض الكنوز

والأموال ، ثم تعود بعدها القوات العربية الى قواعدها في بلاد المغرب .

ونقل طارق بن زياد أخبار المفاوضات التي دارت بينه وبين يوليان الى موسى بن نصير ، الذي وجد أن الوقت قد حان لفتح الأندلس . ثم تحقق موسى من صدق ما نقله اليه طارق حين ذهب يوليان بنفسه الى القيروان ، ليعرض وجهة نظره على السلطات العربية العليا هناك . اذ أكد يوليان لموسى بن نصير الخير الوافر الذي سيعود على العرب من القيام بغزو الأندلس ، وبمساعدهم له ضد لوزريق . فوصف له حسناتها وفضلها وما جمعت من أشتات المنافع وأنواع المرافق وطيب المزارع وكثرة الثمار ، وغزارة المياه ، وعدوبتها ، وهون عليه مع ذلك حال رجالها ، ووصفهم بضعف البأس وقلة الغناء (أى الكفاية) .

وبهذا حصل موسى بن نصير على تقرير شامل واف عن بلاد الأندلس ، من خبر عليم بأحوالها ، ووجد أن كل الظروف قد أصبحت سانحة للانتقال الى ميدان جديد حافل بالمجد والفخر . وبدأت الاستعدادات تأخذ طابع الجد ، ولكن في سرية تامة أثبتت مرة أخرى أن موسى بن نصير رجل الساعة الجريء ، وكشف في الوقت نفسه عما تحلى به من صفات قيادية . وهياً له التاريخ بذلك صفحة مشرفة ، خلد فيها سبقه الى نشر الاسلام في أوروبا ، وتمهيد التربة هناك لغرس بذور الحضارة العربية ، التي أخرجت أهل أوروبا من ظلمات العصور الوسطى وشيدت لهم أصول نهضتهم التي ينعمون بها حتى الوقت الحاضر .

الفصل السابع

القيادة الجماعية

فتح الأندلس نموذجا رائعا من أعمال القيادة الجماعية تجلى فيه روعة التنسيق بين الخطط ، ودقة التنفيذ في العمل ، وقوة الارتباط بين الأطراف المشتركة في هذا الفتح ، على الرغم من بعد الشقة



بينها . وكان موسى بن نصير هو العمود الفقري للقيادة الجماعية وحلقة الاتصال بين أعضائها في هذه المرحلة الهامة من مراحل انتقال الجيوش الإسلامية الى غرب أوروبا ، ونشر راية الاسلام بين بقاعها :

وكان أول شيء قام به موسى بن نصير في سبيل تنفيذ دوره في القيادة الجماعية هو ترحيبه بيوليان حين وفد الى القيروان ، وأعلن موافقته على مساعدته ضد لوزريق . واستطاع بذلك أن يستفيد من الموقف السياسي الذي ساد حكام الأندلس وأن يسخره لخدمة الجيوش الإسلامية الغازية .

وأخذ موسى بن نصير بعد ذلك يعد العمليات الحربية في اسبانيا وفق النهج الذي سارت عليه الفتوح الإسلامية في غيرها من الجهات . ذلك أن بعض المؤرخين توهم أن قلة الجند الإسلامي الذي اشترك في الحملة الأولى على بلاد الأندلس يدل على أن الهدف من الفتح هو الحصول على المغانم . ولكن غاب عن هذا النفر من المؤرخين أن خطط موسى بن نصير كانت قد درست بعناية فائقة،

وأن السلطات المركزية في دمشق أحيطت علما بها ، كما شاركت في إعدادها ، والموافقة عليها ، وهذا مما ينهض دليلا على قوة القيادة الجماعية الإسلامية ، ودحض الافتراء القائل بأن الفتح كان ارتجاليا ، وكان القصد منه الحصول على الأسلاب والمغانم .

وتجلت قوة الربط بين أعضاء القيادة الجماعية التي تولت فتح الأندلس ، حين كتب موسى بن نصير إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك يستأذنه في فتح تلك البلاد ، ويشرح له اضطراب أحوالها ، وأن الفرصة غدت مواتية بعد مؤامرة يوليان ضد لوزريق . غير أن الخليفة أمر موسى بأن يختبر الأندلس ، ويدرس أحوالها بنفسه بإرسال حملات استطلاعية إليها . ولما كرر موسى بن نصير على الخليفة الإذن له بغزو إسبانيا ، وأكد له مرة أخرى أن تلك البلاد قريبة من ممتلكات المسلمين في طنجة ، حتى أن المرء يشاهد مناظرها بنفسه في سهولة ، ولما كرر عليه ذلك أصر الخليفة على ضرورة إرسال الحملات الاستطلاعية أولا ، قائلا لموسى : « وان كان ! فاختبره (أي الأندلس) بالسرايا » .

وكشفت المراسلات السالفة التي دارت بين موسى بن نصير والخليفة الوليد بن عبد الملك عن أن السلطات الإسلامية قد أعدت عدتها لفتح إسبانيا ، وأن الخلافة وافقت على هذا الفتح ، وأن الأمر لم يكن مغامرة حربية من جانب المسلمين للحصول على المغانم . فالحملات التي تستهدف هذا النوع من الأغراض المادية لا تتطلب استئذان السلطات العليا والحصول على موافقتها . هذا إلى أن موسى بن نصير جعل الخلافة نفسها متضامنة معه في مسؤولية فتح الأندلس ، وليحصل على مساعدتها ، على نحو ما سبق أن حدث في الحملات الإسلامية لفتح بلاد المغرب . إذ كانت السلطات المركزية في دمشق تقف وراء جهود قادة المسلمين وتزودهم بالامدادات والعدة والعتاد كلما تطلب الموقف ذلك . وكانت الخلافة في دمشق حريصة على ألا يصيب المسلمين

كارثة ما ، أو ينزل بهم خسران فادح في بلاد اسبانيا ، لأنها تمثل ميدانا جديدا ، به عنصر من القوط الذين علقت بأخبارهم قصة هدم الامبراطورية الرومانية في غرب أوربا ، وعرف عنهم أيضا الميل الى العنف في القتال وحب التخريب والتدمير واتباع المكيدة والخداع في المعارك والحروب . غير أن موسى بن نصير قد تجمعت لديه أخبار موثوق بها عن القوط ، وما اعتراهم من ضعف ، وما ساد دولتهم من تفكك وانحلال ، ولا سيما بعد أن اجتمع بيوليان ، وعرف ما صارت اليه قوة القوط من وهن وتدهور . ولم يجد موسى بن نصير ، على الرغم مما لديه من أنباء بشئون القوط الا أن يمثل لأمر الخليفة الوليد ، ويختبر اسبانيا بالسرايا ، أي الحملات الاستطلاعية .

وعهد موسى بن نصير الى يوليان نفسه القيام باغارة على جنوب اسبانيا ليتحقق بذلك من أمرين ، أولهما أن يوليان جاد في دعواه ضد لوزريق ، وكراهيته له ، ولحكومته في اسبانيا ، وثانيهما أن يعرف من المقاومة التي يتعرض لها يوليان مدى قوة القوط ، وما لديهم من استعداد حربي . وقام يوليان فعلا باغارة سريعة على جنوب اسبانيا ، ورجع منها محملا بالكثير من الغنائم والسبي .

وأراد موسى بن نصير أن يقف بعد ذلك بنفسه على أحوال اسبانيا ، فأعد حملة من المسلمين جعل على رأسها أحد قادته المشهورين بالمغامرة والشجاعة ، وهو أبو زرعة طريف . فبعث هذا القائد الى الأندلس ومعه أربعمائة من خيرة الفدائيين المسلمين ، وذلك على سفن قدمها لهم يوليان . ونزل المسلمون في جزيرة صغيرة اسمها بالوماس ، وهي التي صارت تحمل بعد ذلك اسم القائد المسلم ، وعرفت بجزيرة طريف . وبادرت قوة مكونة من أبناء غيطشة التي اشتركت في الحملة الى مساعدة المسلمين ، وحراسة المضيق ، وذلك في شهر رمضان سنة ٩٢ هـ / يوليو سنة ٧١١ م . وشن طريف من مركزه بتلك الجزيرة عدة حملات

استطلاعية على سواحل اسبانيا الجنوبية ، حيث درس تحصيناتها، وعرف الكثير من احوال أهلها ومدى علاقتهم بحكامهم من القوط . وأخيرا عاد طريف الى بلاد المغرب ، فقدم تقريرا مفصلا عن اغاراته الى موسى بن نصير ، وشرح له في اسهاب احوال اسبانيا شرح الخبير ، الملم بالدراسة المستفيضة ، مما يدل على عمق الاستعدادات الاسلامية ، ودقة تنظيماتها .

وقد أكدت اغارة طريف لموسى بن نصير صدق الأقوال التي نقلها اليه يوليان عن انهيار الاحوال في اسبانيا ، وافتقارها الى أسباب الدفاع ، بسبب انشغال القوط بملاذهم وانصرافهم الى أعمال الطغيان وسلب ثروات البلاد لأنفسهم . فلم يلق طريف نوعا من انواع المقاومة ، كما لم يقابل قوة من قوات القوط أثناء استطلاعه لاحوال جنوب اسبانيا . هذا الى أن مبادرة أفراد من بيت غيطشة الى مساعدته وحراستهم لخطوط مواصلات المسلمين جاء دليلا واضحا على الانقسام الذي ساد الطبقة الحاكمة من القوط ، وأن لوذريق لا يحكم الا بالعنف والقسوة ، وهو أمر لن يكفل له مقاومة المسلمين طويلا عندما يبدأ الفتح الاسلامي للبلاد . هذا الى أن يوليان برهن مرة أخرى ، بما قدمه من مساعدات لحملة طريف على أنه كاره فعلا للوذريق ، وأن المؤامرة التي دبرها مع أبناء غيطشة ضد هذا الحاكم المستبد مؤامرة لها خطرها ، وأن خيوطها صحيحة وسليمة .

وبعودة حملة طريف انتهى موسى بن نصير من دور الحملات الاستطلاعية ، وبدأ الاعداد الفعلي للفتح المنظم لاسبانيا . وأثبت موسى بن نصير مرة أخرى مقدرة حربية فائقة في تلك السبيل ، واجادة دوره في القيادة الجماعية اجادة كاملة . اذ دارت الاستعدادات الحربية التي قام بها دون أن يتسرب أمرها الى القوط ، ودون أن ينتبه يوليان نفسه الى حقيقة اهدافها وجوهر مراميها . فقد استطاع موسى بن نصير أن يوهم يوليان بأن

استعداداته الواسعة النطاق ، التي أعقبت حملة طريف ، ما هي إلا حملة قوية لمساعدة أبناء غيطشة ضد لوزريق ، وأخفى عنه تماما أنها ستكون الحاققة الأولى في سلسلة الفتح المنظم لأسبانيا .

وأعد موسى بن نصير حملة مكونة من خمسة آلاف جندي ، حتى لا يثير كثرة غدها ريبة يوليان أو مخاوفه . وفي الوقت نفسه سار موسى بن نصير في ذلك الإعداد على النهج الذي سارت عليه فتوح المسلمين الكبرى في شتى الجهات ، وهو القيام أولا بارسال حملة صغيرة العدد ، يتبعها امدادات لا تنتهي ، سواء من حيث الكثرة أو حسن الاستعداد ، حتى يتم تحقيق الأهداف الحربية . وهذا ما حدث فعلا في فتح الشام ومصر وفارس وبلاد المغرب نفسها . فكانت الجيوش التي توجهت لفتح تلك البلاد صغيرة العدد ، ثم لم تلبث أن جاءت عند الضرورة امدادات واسعة كفلت لها النصر التام . وأثبت موسى بن نصير في ميدان فتوحه الجديدة بالأندلس أنه لا يقل جدارة وخبرة وكفاية عما سبقه من أقرانه من قادة المسلمين المشهورين ، أمثال خالد بن الوليد وعمر بن العاص ، وسعد بن أبي وقاص . إذ قاد كل منهم حملات صغيرة في أول الأمر ، لم تلبث أن ازدادت أعدادها ، وسجلوا للمسلمين صفحات مجيدة في تاريخهم الحربي .

وتوج موسى بن نصير دوره في عمل القيادة الجماعية حين انتدب للحملة الإسلامية الأولى على الأندلس أحسن قادة المسلمين إذ ذاك ، وأشدهم ثقة به ، وهو طارق بن زياد . وجاء اختيار هذا القائد خطوة موفقة من موسى بن نصير ، وأكدت بعد نظره وسعة خبرته الحربية . فطارق من البربر الذين عرفوا أرض الأندلس معرفة وثيقة ، لأنهم يرونها امتدادا لبلادهم لا فارق بين بيئتها وبيئة وطنهم . يضاف الى ذلك أن طارقا هو الذي تولى بنفسه جمع المعلومات عن بلاد الأندلس ، وتولى مفاوضات يوليان ، وصار خبيرا بالميدان الجديد في سائر نواحيه الحربية والسياسية .

وعمد موسى بن نصير الى ان يشد أزر طارق الذي عهد اليه بالقيادة العليا للحملة ، اذ ضم اليه هيئة من كبار رجال الحرب ، من العرب والبربر ، ليكونوا بمثابة مجلسه الاستشاري ومساعديه في ادارة المعارك . ومن أولئك القادة العرب : عبد الملك بن أبي عامر المغافري ، وعلقمة اللخمي ، وأحد موالى الخليفة الوليد بن عبد الملك واسمه مفيث الرومي . وكان القائد الأخير يعتبر مندوب الخلافة الحربي في تلك الحملة التي أعدها موسى بن نصير ، وحلقة الاتصال بين السلطات المركزية في دمشق ومقر القيادة الاسلامية في القيروان . اما قادة البربر ، الذين انتدبهم موسى بن نصير للعمل الى جانب طارق بن زياد ، فكان من بينهم « مونوسة » ، وغيره من كبار المحاربين البربر الذين اشتهروا بحماستهم في القتال وغيرتهم على نشر الاسلام . وجاءت هذه الطائفة من قادة البربر عنوانا على نجاح موسى بن نصير في اقرار دعائم الحكم الاسلامي في ولايته الجديدة ببلاد المغرب ، ودلالة على ان تلك الجهات صارت القاعدة الأساسية لفتح الأندلس .

وكلف موسى بن نصير بعد ذلك يوليان أن يقدم للقوات الاسلامية السفن اللازمة لنقلها الى اسبانيا ، كما يتولى حراستها ، ويقوم بمهمة الدليل لها . وكان السبب في اصرار موسى بن نصير على الاعتماد في نقل الجند بسفن يوليان هو حرصه الشديد على اخفاء تحركات هذه الحملة عن العيون والجواسيس . فالأسطول الاسلامي كان قد تم اعداده على عهد موسى بن نصير ، وصارت له قاعدة هامة في تونس ، كما ظهر نشاطه في السيطرة على الجزر الهامة في غرب البحر المتوسط . ولذا كانت تحركات هذا الأسطول محط أنظار الجميع ولا يمكن اخفاء أمرها . ولما كان موسى بن نصير يستهدف مفاجأة القوط بالأندلس ، لم يكن أمامه سوى الاعتماد على سفن يوليان التي لا تثير الريبة في نفوس من يشاهدها وهي تعبر بحر الزقاق (مضيق جبل طارق) . وكان هذا الحذر التام مطلوبا في تلك المرحلة الأولى من فتح اسبانيا ، ولا سيما أن مهمة نقل الجنود

عبر المياه تحتاج الى دقة واحتياط شامل ، لتجنب هجوم قد يسفر عنه كارثة محققة .

وكان لدى يوليان أربع سفن لا تتسع لنقل أفراد الحملة مرة واحدة ، ولذا تمت عملية عبور بحر الزقاق (مضيق جبل طارق) على دفعات . واخذت كل جماعة يتم نقلها تختفى في جهات خصصت لها على الشاطئ الأسباني حتى انتهى الجميع من العبور ، وذلك سنة ٩٢ هـ / ٧١١ م واتخذت الحملة الاسلامية مركزا لها عند الجبل الذي حمل اسم قائدها حينئذ ، وصار يعرف باسم « جبل طارق » .

وبادر طارق بن زياد بتحسين القواعد الأولى التي استولى عليها في جنوب اسبانيا قبل التوغل في داخل البلاد . وروت المراجع الحديثة في هذا الصدد رواية خلاصتها أن طارق بن زياد أمر بإحراق السفن التي عبر بها بحر الزقاق (مضيق جبل طارق) ، حتى يقطع على جنده كل أمل في العودة الى افريقية ، ويحفزهم على الاستبسال في القتال . ولا شك أن هذه الرواية لا يقبلها المنطق السليم ، ولا يعقل أن يقدم عليها قائد محنك مثل طارق بن زياد . فإحراق السفن يترتب عليه عزل الحملة الاسلامية ، وقطع سبل اتصالها بافريقية ، وارتباطها بالسلطة المركزية في القيروان . والمعروف عن بديهيّات الحروب أن يعمل القادة على المحافظة على سلامة خطوط مواصلاتهم مع مراكز الامدادات والتموين . واثبتت مجريات الأحداث أن طارق بن زياد حرص كل الحرص على دعم وسائل اتصاله بموسى بن نصير في القيروان ، وابلاغه خطوة خطوة تفاصيل الموقف الحربى ، وطلب منه نجدات وصلت سريعا ، وذلك بواسطة سبل الاتصال الوثيقة بين اعضاء القيادة الجماعية .

وعمد طارق بعد نجاح حملته في عبورها لبحر الزقاق ، واتخاذها قواعد لها على شاطئ اسبانيا ، عمد الى دعم نقط

ارتكازه ، وذلك بتوسيع دائرتها والسيطرة على الجهات التي تكمل لها أسباب الطمأنينة والمنعة . وكان طارق بن زياد يسير في ذلك وفق السياسة التي دأب عليها موسى بن نصير في رسم الخطط الحربية ، والعمل على تجنب هجمات مفاجئة قد تعرض مشروعاته الحربية للفشل . فاستهدف طارق بن زياد - بتوسيع قاعدة عملياته وتحسينها - جعلها على صلة دائمة ببلاد المغرب وتأمين ظهره فيها . وأثبت هذا القائد أنه لا يقل مهارة عن أقرانه من قادة المسلمين الأول ، في تنفيذ الرسالة التقليدية التي ساروا عليها جميعا ، وهي وضع جيوشهم في مواقع لا تؤخذ منها على غرة ، ولا تمكن لعدو قطع مواصلاتها مع مراكز القيادة العليا . وانتدب طارق لهذا العمل أشهر قادته ، وهو عبد الملك بن أبي عامر ، ومعه فرقة من خيرة الجند . واستولت هذه الحملة على بلدة الجزيرة الخضراء قبالة جبل طارق ، وصار بحر الزقاق في قبضة المسلمين وعلى اتصال وثيق بسبته ، قاعدة الاتصال الأولى ببلاد المغرب .

وتمت المرحلة الأولى بذلك من نزول الحملة الإسلامية في إسبانيا دون أن تلقى مقاومة . وكان السبب في ذلك هو دقة خطط القيادة الجماعية والتنسيق بينها . ذلك أن موسى بن نصير اختار وقت قيام حملة طارق بن زياد وفق أدق المعلومات التي وصلتته ، وطبقا لكل قواعد الحروب لا الاغارات السريعة . فكانت المخابرات الإسلامية تتبع حركات لودريق ، وتتحين الوقت المناسب لبدء الحملة . وسرعان ما سنحت الفرصة حين ذهب لودريق الى أقصى شمال إسبانيا ليخمد ثورة قام بها سكان جبال البرانس المعروفة باسم القبائل البسقاوية . وكانت تلك الجموع القبلية مشهورة بالمراس وقوة الشكيمة ، مما جعل لودريق يأخذ الغالبية العظمى من جيشه معه ، وصارت جهات جنوب إسبانيا خالية تماما من أسباب الدفاع عنها . ولذا لم تشعر سلطات القوط بنزول المسلمين في جنوب البلاد الا بعد أن استقرت دعائمهم ، ومكنوا لأنفسهم على بحر الزقاق . فعبأت قوات سريعة ، وأرسلتها على عجل للهجوم

على المسلمين ، تحت قيادة « بنج » المعروف باسم « بنشو » في المراجع الاسبانية . ولكن القوط لقوا هزيمة فادحة ، ولم ينج منهم الا واحد استطاع الهرب ، والذهاب الى معسكر لوزريق في اقصى الشمال ، ونقل اليه انباء تلك الكارثة ، وهجوم المسلمين على البلاد .

وكان لوزريق يقيم في مدينة بنبلونة بأقصى الشمال ، حيث يدير الحرب ضد القبائل البسقاوية . ولذا صمم على العودة سريعا الى الجنوب ، والهجوم على المسلمين قبل ان يتوغلوا في داخل البلاد . وكان لوزريق من أشهر رجال القوط في ميدان الحروب . اذ قدر تماما الخطر الذي أحاط بدولته بسبب نجاح المسلمين في اتخاذ قاعدة لهم عند جبل طارق ، وأدرك أنهم جاءوا للفتح وليس للاغارة من أجل السلب والنهب والحصول على المغانم ، كما راجت الاشاعات بذلك . ومن ثم عمد الى جمع صفوف القوط لمواجهة المسلمين ، فاتصل بأبناء غيطشة وسائر أفراد بيته ووصالهم ، ليكونوا جميعا يدا واحدة . ولكن أعمال لوزريق في تلك السبيل جاءت متأخرة ، لأن بيت غيطشة ظل على ولائه سرا للخطوة التي وضعها مع يوليان ، ولم ينس ما حل به من أذى واضطهاد وتشريد على يدى لوزريق . وفي الوقت نفسه ظل أبناء هذا البيت على اعتقادهم بأن المسلمين لم يأتوا للفتح ولكن للحصول على المغانم مقابل مساعدتهم في القضاء على لوزريق .

وزحف لوزريق سريعا ، واحتل قرطبة ليحول بين المسلمين وبين الاستيلاء عليها ، لأنها المفتاح الذى يسيطر على سهول الأندلس الجنوبية الشرقية ، ويمكن لصاحبها من الاستقرار فى البلاد . وكان طارق يريد فعلا الاستيلاء على قرطبة ، فقد زحف على هذه المدينة بعد انتصاره فى جنوب اسبانيا ، وسلك الطريق المار بجزيرة طريف ، ثم زحف شمالا بعد ذلك حتى اقترب من بحيرة الخندق ، التى يخرقها نهر صغير يسمى « البرباط » . وفى ذلك المكان قامت

مدينة صغيرة سماها المسلمون « بكة » ، ونسبوا اليها النهر ،
الذي صار يعرف باسم « وادي بكة » ، وحرف بعض المسلمين
هذه التسمية إلى « وادي لكه » .

وعند وادي بكة عرف طارق بن زياد عن طريق عيونه أن لوذريق
علم نبأ الحملة الإسلامية ، وأنه وصل إلى قرطبة واستولى عليها ،
كما أنه تابع زحفه جنوبا واتخذ معسكره عند شذونة في سهل
البرباط ، وأنه صار بذلك على أهبة القتال . وبلغ جيش القوط
تحت إمرة لوذريق مائة ألف ، وضم عددا عظيما من الفرسان .
وأدرك طارق بن زياد أن العدد الذي معه من جند المسلمين لا يكفي
لقتال قوات لوذريق الهائلة . ولذا أرسل إلى موسى بن نصير
يشرح له الموقف ، ويطلب إليه الامدادات ، وقال : « ان لوذريق
زحف إليه بما لا قبل له به ، إلا أن يشاء الله » .

وكان موسى بن نصير ، منذ دخل طارق اسبانيا ، يتابع سير
الحملة خطوة خطوة ، ويتخذ الاحتياطات الكفيلة بنجدها في الوقت
المناسب . ومن أهم الأعمال التي قام بها موسى بن نصير في تلك
السبيل هو اعداد أسطول كبير ، يتكون من عدد من السفن الصالحة
لنقل الجند مرة واحدة ، لا على دفعات ، كما حدث عند إرسال
حملة طارق . ذلك أن المسلمين بعد أن سيطروا على بحر الزقاق
« مضيق جبل طارق » ، لم يعودوا في حاجة إلى اخفاء حركاتهم ،
ولا في حاجة إلى الاعتماد على سفن يوليان القليلة العدد . وأشارت
المراجع إلى هذه الاستعدادات التي قام بها موسى بن نصير ، وأنه
« منذ وجه طارقا لوجهه قد أخذ في عمل السفن حتى صار عنده
منها عدد كبير » . وبرهن موسى بن نصير عن كفايته في هذه المرحلة
الخطيرة من مراحل نشر الإسلام في أوروبا وأنه حري أن يدعى ليقظته
« بالقائد الذي لم يهزم له جيش قط » .

وكان موسى بن نصير قد اتخذ لكل حالة ما يناسبها . فأعد
حملة أخرى من خمسة آلاف جندي ، نقلها مرة واحدة على

الأسطول العربى الى اسبانيا . ومما يدل على يقظة موسى بن نصير وقدرته على تصريف الأمور فى سرعة فائقة أنه بعث تلك الامدادات تحت قيادة طريف بن مارك ، الذى قاد أول حركة استطلاعية فى أرض اسبانيا ، ليضمن بالتالى تجنب تأخير ماقد ينجم عن الجهل بالطرق ومدارجها .

وجاء ارسال هذه النجدة سريعا وفى وقت قصير دليلا ناصعا أيضا على أن خطوط المواصلات كانت سهلة ومنظمة ومأمونة بين موسى بن نصير وطارق بن زياد ، أى بين مقر القيادة العليا فى القيروان وميدان القتال فى اسبانيا ، وأن قائد الحملة الاسلامية لا يعيش فى عزلة بسبب ماتوهمته بعض المراجع من قصة احراق السفن . ولذا وصلت الامدادات الاسلامية الى طارق فى اللحظة الحاسمة التى كان القوط فيها على وشك شن الهجوم على المسلمين . وفى الوقت نفسه كشفت تلك النجدة الاسلامية عن أن موسى ابن نصير سار فى فتح الأندلس وفق خطة مرسومة ومدروسة بعناية فائقة ، تهدف الى فتح البلاد اسلاميا لا من أجل الحصول على المغائم . فضمت تلك النجدة عددا كبيرا من الخيالة ، على حين كان معظم جند طارق من الرجال ، أى أن القيادة العليا فى القيروان كانت تعرف احتياجات الحملة وما يكفل لها الفوز والاستمرار فى القتال .

وأعد طارق بن زياد قواته للمعركة ، ثم وقف بين جنده خطيبا يحثهم على الاستبسال فى القتال ، شأنه فى ذلك شأن قادة الفتوح العربية ، الذين دأبوا على رفع روح جندهم المعنوية بالقاء خطاب حماسى بينهم قبل نشوب المعركة . وتعتبر خطبة طارق من روائع الأدب العربى ، وعنوانا على انتشار اللغة العربية ، وأنها أصبحت الرباط القوى الذى يجمع بين أبناء المغرب والمشرق . قال طارق مخاطبا جنده :

« ايها الناس : أين المفر ؟ البحر من ورائكم ، والعدو أمامكم ،

وليس لكم والله الا الصبر والصدق . واعلموا انكم في هذه الجزيرة اضيع من الأيتام في مادية اللئام ، وقد استقبلكم عدوكم بجيوشه وأسلحته . وأقواته موفورة ، وانتم لا وزر لكم الا سسيوفكم ، ولا أقوات لكم الا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم . وان امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمرا ، ذهبت ريحكم ، وتعوضت القلوب عن رعبها فيكم الجرأة عليكم . فأدفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية ، فقد ألفت به اليكم مدينته الحصينة . وان انتهز الفرصة فيه لممكن أن سمحتم لأنفسكم بالموت . واني لم أحذركم أمرا انا عنه بنجوة ، ولا حملتكم على خطة أرخص متاعا فيها للنفوس ، أبدا بنفسى .

« واعلموا انكم ان صبرتم على الأشق قليلا ، استمتعتم بالأرقة الألد طويلا . فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى ، فما حظكم فيه بأوفى من حظى . وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان ، الرافلات فى الدر والمرجان ، والحلل المنسوجة بالعقيان، المقصورات فى قصور الملوك ذو التيجان . وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك ، أمير المؤمنين ، من الأبطال عربانا ، ورضيكم ملوك هذه الجزيرة أصهارا وأختانا ، ثقة منه بارتياحكم للطعان ، واستماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان ، ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته ، واطهار دينه بهذه الجزيرة ، وليكون مغنمها لكم من دونه ، ومن دون المؤمنين سواكم . والله تعالى ولى انجادكم على ما يكون لكم ذكرا فى الدارين . »

« أيها الناس : ما فعلت من شىء فافعلوا مثله ، ان حملت فاحملوا ، وان وقفت فقفوا ، ثم كونوا كهيئة رجل واحد فى القتال . واني عامد الى طاغيتهم بحيث لا أنهيه حتى أخالطه وأمثل دونه ، فان قتلت فلا تهنوا ولا تحزنوا ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم وتولوا الدبر لعدوكم فتبدوا بين قتيل وأسير . واياكم اياكم ان

ترضوا بالدنية ، ولا تعطوا بأيديكم ، وارغبوا فيما عجل لكم من الكرامة والراحة من المهانة والذلة . وما قد أجل لكم من ثواب الشهادة ، فانكم ان تفعلوا والله معكم ومفيدكم تبيءوا بالخسران المبين ، وسوء الحديث غدا بين من عرفكم من المسلمين ، وهأنذا حامل حتى أغشاه ، فاحملوا بحماتي » (١) .

وفي الوقت الذي عملت فيه خطبة طارق عمل السحر في نفوس جند المسلمين ، ورفعت من روحهم المعنوية ، كانت العناصر الحاققة على لوذريق تحدث أعمالها ، وتدفع بكثير من أولئك الغاضبين الى الانضمام الى جيش طارق . ووقف الفريقان على ضفتي النهر أخيرا استعدادا للقتال . وكان المسلمون ببساطتهم ويقظتهم موضع الهيبة في النفوس ، على حين كان منظر القوط يدعو الى السخرية والازدراء . اذ جلس لوذريق في عربة مطهمة يجرها جوادان ، وعليه اثواب الحرير البراقة ، وهو يحاول عبثا بث روح الحماسة في جنده . وكان في جيشه اثنان من اخوة غيطشه ، وهما : أبه وششبرت ، اللذان صالحهما بغية توحيد صفوف القوط ، وجعل أحدهما على الخيالة التي كانت عماد جيش القوط .

وفي يوم الأحد ٢٨ من رمضان سنة ٩٢هـ / ١٩ يوليو سنة ٧١١م بدأت المناوشات بين الجانبين على وادي الرباط ، بالقرب من شدونه . واستمرت المناوشات ثلاثة أيام ، أظهر فيها كل من الجانبين الكثير من ضروب الشجاعة والبسالة دون أن يحصل طرف منهما على نصر يذكر . غير أن أتباع يوليان نشطوا في أثناء القتال ، وبثوا رجالاتهم وسط جند لوذريق ليصرفوهم عنه ، ويؤكدون لهم

(١) نسبت بعض المراجع الى طارق بن زياد قصيدة قالها في فتح الأندلس :

ركبنا سفينا بالمجاز قصيرا	عسى ان يكون الله منا قد اشترى
نفوسا واموالا وأهلا بجنة	اذا ما اشتبهنا الشيء منها قيسرا
ولسنا نبالي كيف سالت نفوسنا	اذا نحن أدركنا الذي كان أجدرنا

أن المسلمين لم يأتوا الى الأندلس للفتح والاستقرار ، ولكن للقضاء على هذا الطاغية ، وأنه اذا تم الاطاحة بحكم لوزريق عادت البلاد ملكا لهم ينعمون بخيراتها . ونجحت دعايات يوليان بين فرسان القوط خاصة تلك التى يتولى قيادتها أحد اخوة غيطشة ، ملك القوط السابق ، الذى قضى عليه لوزريق .

وفى اليوم الرابع من المعركة ظهرت نتائج دعايات يوليان بين صفوف لوزريق . فقد تخلى عنه جماعات الخيالة ، التى كانت العمود الفقرى للعمليات الحربية . وأدى ذلك الى وقوع الاضطراب بين سائر جند القوط ، وهرب الكثيرون منهم طلبا للنجاة . هذا الى أن غالبية الجيش اشتملت على أعداد كبيرة من العبيد الساخطين على حكم القوط المتمنين زواله ، ووجدوا فى تلك المعركة فرصتهم للخلاص مما حل بهم من ظلم واضطهاد . ولما أخذت مظاهر الفوضى تسود الجيش بسبب انسحاب الخيالة تراخى العبيد عن القتال ، وانتهت المعركة بانتصار المسلمين .

وفر لوزريق تاركا عددا كبيرا من القتلى على أرض الميدان . وحسب البعض أن لوزريق غرق فى النهر الذى دارت المعركة بقربه ، لأن الجند وجدوا على الشاطئ بعد انتهاء القتال خفه ، دون أن يعثروا له على أثر . غير أن لوزريق العنيد أبى الاستسلام بعد الهزيمة الساحقة التى نزلت به ، وفر فى داخل البلاد دون أن يكتشف أحد أمره ، مستهدفا جمع فلول القوط مرة أخرى والانتقام ممن انضم من رجاله الى المسلمين .

وبعث طارق بأنباء انتصاراته الى موسى بن نصير ، الذى أبلغها بدوره للخليفة الوليد فى دمشق . ووصف موسى بن نصير هذا النصر الباهر بأسلوب بليغ ، فقال للخليفة : « لم يكن هذا فتحا كغيره من الفتوح يا أمير المؤمنين ، فان الواقعة كانت أشبه باجتماع الحشر

يوم القيامة » . وجنت القيادة الجماعية أول ثمرة من ثمار نشاطها، وبدأت راية الاسلام تعلو خفاقة فوق غرب أوربا للمرة الأولى في التاريخ .

وازدادت قوات طارق بن زياد بعد معركة وادي بكة ، لأن الامدادات انهالت عاياه من بلاد المغرب . ورأى هذا القائد أن يتابع زحفه دون ابطاء ليستولى على قرطبة ويقضى على ما بها من بقايا جيش القوط . غير أنه لقي في الطريق الى هذه المدينة مقاومة عنيفة جعلته يعدل من خطته ، ويبادر بالاستيلاء على طليطلة عاصمة دولة القوط ، ويتوج بذلك انتصاراته في اسبانيا . وكان السبب في هذا التطور الجديد هو ما بلغ طارق من أن أنصار لوزريق حين ترامت اليهم الشائعات بأن ملكهم لم يقتل بدعوا يجمعون صفوفهم، مرة أخرى في طليطلة لمقاومة المسلمين . ومن ناحية أخرى أخذ أنصار الملك السابق غيطشة يجتمعون في طليطلة ، ويتشاورون فيما بينهم لاعلان أحدهم ملكا مكان لوزريق المهزوم . ولذا عجل طارق بارسال جزء من جيشه للاستيلاء على قرطبة ليحظى بممتلكاته بجنوب اسبانيا ، على حين انطلق بنفسه سريعا الى طليطلة قبل أن يتمكن أتباع لوزريق من تحصينها ، وقبل أن يصل أبناء غيطشة أيضا الى قرار يصعب على المسلمين مواجهته . ذلك أن بيت غيطشة ظل واهما (حتى تلك الأحداث) بأن المسلمين ماجءوا إلا للمغانم مقابل مساعدة أبناء غيطشة للوصول الى العرش .

وسيطر طارق بن زياد على طليطلة في سهولة ويسر ، لأن القوط آثروا تجنب لقاء المسلمين ، انتظارا لما تسفر عنه استعداداتهم . وحاول طارق أن يتتبع فلول القوط الهاربة من طليطلة ، حتى بلغ مدينة أطاق عليها المسلمون اسم « المائدة » ، على مقربة من قلعة هنارس . وهناك عثر المسلمون على كنز ثمين كان عبارة عن مذهب كنيسة طليطلة ، المحلى بأغلى ما كان لدى القوط من الذهب والجواهر . غير أن طارقا اضطر الى العودة الى طليطلة ، لأن

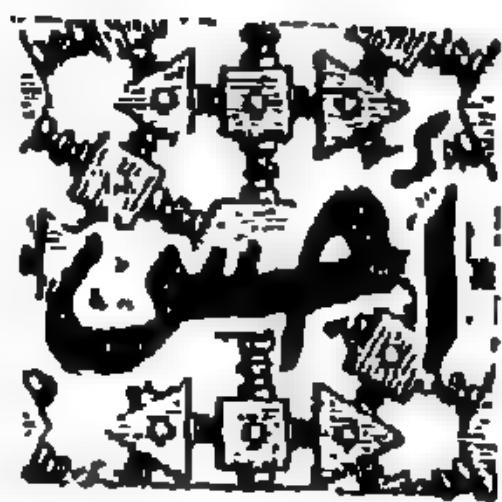
الصيف قد انقضى اذ ذاك ، ورغب في البقاء في العاصمة دون أن يعرض جنده لبرد الشتاء القارس ، وفي طليطلة بلغه أن جيشه الذي بعث به الى قرطبة قد استولى عليها .

وبسقوط قرطبة ، وانتظار طارق في طليطلة صارت الأحوال في اسبانيا تتطلب يقظة خاصة . وكان موسى بن نصير يدرس نتائج الموقف الذي ترتب على فتوح طارق بن زياد ، ويستخدم في سبيل ذلك كل ما أوتي من مقدرة حربية وسياسية . ولم يلبث موسى ابن نصير أن رأى أن الموقف في اسبانيا أصبح يحتم أن يتولى القيادة العليا شخصيا في هذا الميدان الأوربي المترامي الأطراف .

الفصل الثامن

استأذ الفن الحزنى

موسى بن نصير أن العجلة الحربية الإسلامية بعد معركة وادى بكة قد انطلقت انطلاقاً سريعاً ، وأن زحف طارق وراء فلول القوط يوشك أن يعرض الفتوح الإسلامية في البلاد الأسبانية المترامية



الأطراف لخطر محقق . ذلك أن خطوط مواصلات المسلمين فيما بين طليطلة والجزيرة الخضراء وبلاد المغرب صارت غير آمنة ، لأن المعاقل الكبرى المبعثرة على امتداد تلك الخطوط لم تخضع للمسلمين ، ولم يسيطر طارق إلا على قرطبة فقط من بين تلك المعاقل المتعددة . هذا إلى أن قرطبة لم يكن بها سوى حامية صغيرة لا تستطيع أن تؤدي رسالتها كما ينبغي إذا انبعثت أية حركة مقاومة بين صفوف القوط . وكانت جماعات من القوط ما زالت تحكم المدن الخلفية وراء خطوط المسلمين ، وتنتظر الوقت المناسب للالتفاض والعصيان .

وأول من شعر بالخطر الجديد الذى بات يتهدد المسلمين في أسبانيا هو القائد يوليان ، الذى أقام اذ ذاك في الجزيرة الخضراء ليؤمن خطوط مواصلات المسلمين بين أسبانيا وبلاد المغرب ، وذلك في الوقت الذى اندفع فيه طارق بن زياد إلى طليطلة عاصمة القوط . فقد بعث يوليان مجموعة من رجاله مع المسلمين عند

توغلهم في البلاد ، واستطاعت بفضل خبرتها بأهلها أن تدرك ما يدور في نفوس القوط من غدر ، وأنهم يتجمعون وفق خطة مرسومة لانزال الأذى بالمسلمين . وأفضى يولييان الى طارق بما جاءه من أخبار ، وطلب منه ضرورة القيام بعمل حاسم لتأمين ظهر جيوشه . غير أن طارقا لم يجد مفرا من البقاء في طليطلة بعد أن اندفع اليها ، وآثر البقاء فيها دون القيام بأية أعمال توسعية ، ثم كاف يولييان بأن يتصل بموسى بن نصير في القيروان ويطلب اليه سرعة المجيء الى أسبانيا لانقاذ الموقف .

ولما جاءت استغاثة طارق الى موسى بن نصير أدرك أن مخاوفه من انطلاق طارق في فتوحه بعد معركة وادي بكة لها ما يسوغها . وأسرع موسى باعداد جيش مكون من ثمانية عشر ألفا من خيرة جنده : وكان معظمهم من العرب والبربر الذين عرفوا بقوة الشكيمة وشدة المراس ، ومن اشتهروا ببلائهم في ميدان الحروب ببلاد المغرب . وغادر موسى بلاد المغرب على عجل .

وقسم موسى بن نصير جيشه بحسب القبائل ليسهل عبورها الى الأندلس ، دون أن تقع فوضى في صفوف الجند . وفي رمضان سنة ٩٣ هـ / يونيو ٧١٢ م كان موسى بن نصير قد غادر المغرب ووصل الى الجزيرة الخضراء في الأندلس ، وشيد بها مسجدا ، وانتظر هناك حتى تم عبور سائر الجند واطمان على سلامتهم وحسن ترتيبهم . وفي تلك الأثناء أسرع يولييان الى لقاء موسى ابن نصير ، وعقد معه مجلسا حربيا للتشاور في الموقف الخطير . وقرر هذا المجلس الحربى أن الضرورة تقضى بالسيطرة أولا على المعاقل التي تركها طارق ، والتي باتت خطرا يتهدد المسلمين .

وبعث موسى بن نصير ، عقب هذا المجلس الحربى الهام ، رسالة الى طارق بن زياد يأمره فيها بالانتظار في طليطلة ، وألا يقوم بعمل حربى الا بأشعار آخر . ورددت بعض المراجع أن موسى لم يقدم على هذا العمل ، والعبور الى الأندلس ، الا منافسة

لطارق ، ورغبة استبدت به لينال بدوره نصيبا كبيرا من الغنائم ، وأن الحسد كان يأكل قلبه ، وأنه صمم على محاسبة طارق على أعماله ، وأنه رأى أن يتولى بنفسه فتوحا أخرى أعظم مما قام بها هذا القائد .

وقد وقعت تلك المراجع في هذا الخطأ الفاحش لأنها صورت موسى وطارق تصوير القائدين المختلفين ، وأن كلا منهما كان يعمل دون علم الآخر . والمعروف أن طارقا لم يقم بما قام به من أعمال حربية إلا باسم موسى بن نصير ، الذي تولى القيادة العليا ورسم الخطط ، وأمد طارقا بكل المساعدات الحربية ، ولا سيما في ساعة الخطر قبل معركة وادي بكة . هذا إلى أن طارق بن زياد كان يرسل إلى موسى بن نصير عن طريق يوليان أبناء تقدم المسلمين خطوة خطوة ، مما جعل القيادة العليا في القيروان تتابع الأحداث عن كثب . ثم أن طارقا دأب على الاعلان دائما أن له قيادات عليا لا بد من الرجوع إليها . فحينما دخل عليه أبناء غيطشة قالوا له : أنت أمير نفسك أم فوقك أمير ؟ . فقال طارق : « بل على رأسي أمير ، وفوق ذلك الأمير أمير عظيم . فاستأذنوه في اللحاق بموسى ابن نصير بافريقية . »

وحينما قابل موسى بن نصير أبناء غيطشة لم يغير شيئا مما وعدهم به طارق . وتؤكد تلك الحقيقة بدورها مرة أخرى أن طارقا كان يعترف بأن موسى بن نصير هو القائد الأعلى وصاحب الكلمة الفاصلة في الموضوع ، وأنه لم يعمل مستقلا عن موسى حتى في تنظيم الأمور السريعة التي كانت تواجهه في أثناء عمليات الفتوح . ومن أجل هذا لم يكن هناك سببا يدعو موسى لأن يحقق أو يحسد طارقا على ماتم على يديه من فتح ، لأنه شارك في هذا الفتح وأعد خططه . هذا إلى أن موسى لم يكن يتطلع بعبوره إلى الأندلس إلى الحصول على مغانم ، لأن توزيع الغنائم وغيرها

من ممتلكات القوط — على نحو ما حدث مع أبناء غيطشة — كان هو المرجع الأخير فيه ، وكلمته هي الفيصل في كل موضوع .

أما قول تلك المراجع أن موسى كان غاضبا حائقا على طارق فهو قول صحيح ، لأن موسى بن نصير باعتباره القائد الأعلى قد أفزعه زحف طارق السريع بعد معركة وادي بكة ، وتعريضه خطوط مواصلات المسلمين لخطر محقق ، بسبب تركه الكثير من المعاقل والمدن الهامة جريا وراء مطاردة القوط . ومهما يكن من أمر فقد أثر موسى محاسبة طارق عند الالتقاء به في طليطلة ، وبإادر برسم خطط للسيطرة أولا على المراكز الحربية وغيرها من المدن التي كانت تهدد خطوط مواصلات المسلمين ، وليدعم فتوح المسلمين قبل الذهاب الى طارق في طليطلة . وتنهض هذه الخطة التي وضعها موسى بن نصير دليلا على أنه لم يكن يهدف الى القيام بفتوح جديدة تغطي أخبارها وعظمتها ما قام به طارق ، وأن مجيئه الى الأندلس كان ضرورة حربية ملحة ، واصلاح خطأ وقع فيه قائده طارق .

وعمد موسى بن نصير الى تأمين خطوط مواصلات المسلمين بين الجزيرة الخضراء التي نزل فيها وبين قرطبة التي تعتبر مفتاح السيادة على جنوب الأندلس . فعجل بالسير الى شذونة ومنها زحف على قرمونة ، ورعواق واستولى عليهما . وبذلك أصبحت المحطات الهامة على الطريق الى قرطبة في أيدي المسلمين ، وصار في استطاعتهم التقدم من تلك القاعدة نحو الغرب وفتح أشبيلية ، التي كانت أكبر مدن القوط بعد العاصمة طليطلة ، ومصدر الخطر المباشر على القوات التي كانت تحت قيادة طارق في داخل البلاد . وكانت أشبيلية تعتبر نقطة التقاء للطرق الهامة في جنوب الأندلس ، ولا سيما التي تربط الجزيرة الخضراء بداخل البلاد . فكان هناك طريقان يربطان أشبيلية بالجزيرة الخضراء التي جعلها موسى مركزا لالتقاء جنده في اسبانيا . وكان

أحد هذه الطرق بحريا والآخر بریا ، وعلى كل منهما محطات كثيرة ومعقل ، ومن ثم كشف موسى بن نصير عن عبقريته العسكرية حين قصد السيطرة على أشبيلية ، وجعلها مركزا من مراكزه الدفاعية . هذا الى أن أشبيلية اشتهرت بأسوارها الحصينة ومتاجرها الواسعة ، وبهذا أصبحت قاعدة كبيرة من قواعد الفتوح الإسلامية في اسبانيا .

وحاصر موسى أشبيلية بضعة أشهر دون أن يتمكن من الاستيلاء عليها ، مما يدل على خطر مركز القوط بها ، وقوة استعدادهم للثورة على المسلمين . ولم تسلم تلك المدينة إلا حين سارع سكانها من اليهود الى خيانة السلطات بها ، وتعاونوا على فتح أبوابها مع نفر من الأهالي الحائقين على ساداتهم من القوط . وانسحبت آخر حامية القوط الى مدينة باجة ، حيث انضمت الى جموع القوط بها . واكتفى موسى بعد استيلائه على أشبيلية بوضع حامية بها ، وأسرع الى الاستيلاء على مدينة ماردة التي كانت معقلا خطيرا في أيدي القوط ، خلف خطوط المسلمين .

ووجد موسى بن نصير مدينة ماردة قوية الحصون وأشد منعة من أشبيلية ، فكان لها أسوار منيعة ، يعلوها الأبراج والحصون القوية . ثم ان فلول القوط وانصار لوزريق جعلوا تلك المدينة ملجأ لهم بسبب بعدها عن طريق المسلمين ، كما كانت المسالك اليها وعرة وصعبة . ولذا استغرق حصار المسلمين لها آخر الصيف والشتاء التالي له دون أن يسيطروا عليها ، ودار حولها قتال عنيف سقط فيه كثير من الضحايا . فقد أعد موسى كمائن كثيرة أخفاها في جهات صخرية مواجهة للمدينة ، أنزلت ضربات قاصمة بالقوط كلما رغبوا في الخروج من معقلهم ، وقتل كثير من المسلمين أيضا في محاولاتهم نقب سور المدينة . ولم يستقر الأمر لموسى في ماردة إلا بعد جهد شاق ، بذل فيه الكثير

من الوعود لأهلها ، الذين سلموا بعدها في شوال سنة ٩٤ هـ /
يونيو ٧١٣ م .

وأيقظت شدة مقاومة القوط انتباه موسى بن نصير الى ضرورة
اتباع فن حربي جديد لدعم فتوح المسلمين ، اذ رأى ضرورة
وضع المدن التي يفتحها في يد قادة من المسلمين ، دون الاعتماد
على الرجال المحليين ، أو غيرهم من الجماعات التي انضمت اليه في
أثناء زحفه . ذلك أن القوط عمدوا الى الهجوم على المدن التي
يستولى عليها المسلمون بعد أن تغادرها القوات الرئيسية للجيش ،
وافساد الاستقرار الذي يسود تلك المدن . فبعد أن غادر موسى
ابن نصير اشبيلية ، وبدأ حصار ماردة جمع القوط فلولهم
في المدن المجاورة ، وفاجئوا الحامية الإسلامية في اشبيلية ، وقتلوا
منها ثمانين فردا ، وأجبروا الباقين على الخروج من المدينة .
وجاء هذا الانقلاب الأخير عنوانا على شدة مقاومة القوط ، والخطر
الذي كان يكمن لطارق بن زياد ، لولا مجيء موسى بن نصير
لإنقاذه سريعا وفي الوقت المناسب .

وآثر موسى بن نصير الاستمرار في حصار ماردة حتى استولى
عليها ، ثم بعث بابنه عبد العزيز الى اشبيلية لطرد القوط منها .
وانتقى موسى بن نصير بعد ذلك للمدن التي استولى عليها نفرا
من خيرة قادته ، ممن اشتهروا باليقظة والبطولة ، مثل عبد الجبار
الذي تولى قيادة ميسرة جيشه ، اذ عهد اليه بالاشراف على باجة
التي كانت مركز انطلاق مقاومة القوط الى اشبيلية وغيرها
من المدن المجاورة .

واضطر موسى بن نصير - أمام تلك المقاومة العنيفة التي لقيها
جيشه - الى أن يريح جنده في ماردة مدة شهر تقريبا ، قبل أن
يستأنف السير الى طليطلة لمقابلة طارق ، ثم انه قضى فترة الراحة
السالفة الذكر في دراسة أساليب مقاومة القوط التي كلفت
المسلمين خسائر فادحة ، فاقت ما كابدته قوات طارق من قبل .

فلم يفقد المسلمون بقيادة طارق في فتح قرطبة أو طليطلة مقدار ما فقدوه في زحف موسى ولا سيما عند ماردة . وخرج موسى من دراسته بنتيجة هامة ، وهي أن القوط أجادوا اختيار مراكز المقاومة ، حيث تجمعوا في النواحي الجبلية الوعرة ، ليكونوا على اتصال بنواحي قشتالة واسترامادورة إذا ما تمكن المسلمون من الاستقرار في فتوحهم شرقي الأندلس ، وتحويل غرب البلاد الى مقر دائم للمقاومة ، والهجوم على المسلمين كلما سنحت الفرصة .

وأحس موسى بن نصير حركات القوط الجديدة وهو في ماردة ، وأدرك أنهم يهدفون الى الهجوم على المدن التي يستولى عليها ، من أجل دفع طارق بن زياد الى مغادرة طليطلة لنجدة القائد العام المسلم ، ثم يستردون طليطلة في غيبة القوات الاسلامية عنها . ولذا عمد موسى الى تشتيت خطة القوط بأن ظل يقاومهم أطول فترة ممكنة دون أن يطلب الى طارق المجيء الى مساعدته . ولكن ما كاد موسى يفسد ماردة حتى جاءته الأخبار أن لوذريق نفسه ، ملك القوط الذي فر بعد معركة وادي بكة ، بدأ ينظم فلول جيشه ويجمع أتباعه استعدادا للهجوم على المسلمين مرة أخرى . ثم أن لوذريق ، بعد أن أثر البقاء ساكنا ليضرب ضربته الأخيرة في عنف وشدة ، اختار قوات موسى ابن نصير بالذات لتكون هدفه ليهدم بذلك خطط الفتوح الاسلامية كلها في الأندلس مرة واحدة . إذ رأى هذا الملك المخايل أن موسى بن نصير أستاذ الفن الحربي ، وأن الاطاحة به يحمل في طياته القضاء على جميع ما حصل عليه طارق بن زياد من مكاسب .

واتخذ لوذريق مركز مقاومته في شعاب الهضاب التي تلي وادي آنه الى الشمال في جبال سيرا دفرانثيا على أبواب قشتالة واسترامادورة في السهل المنبسط الذي يحيط بسلمنقة . وأجاد

لوذريق اخفاء قواته في تلك الجهات الوعرة ، حتى ان موسى ابن نصير اضطر أخيرا الى أن يتخاضى عن خطته ، وأن يطلب من طارق الخروج من طليطلة ، وأن يلقاه في منتصف الطريق بين تلك العاصمة وماردة ، لينقذ المسلمين اذا ما دهمهم خطر مفاجيء . وسار طارق نحو مائة وخمسين ميلا ، واتخذ مكانه في الجهات المعروفة باسم « العرض » بين التاجة ونهر التيتار .

وسار موسى بن نصير مع قواته في طريق روماني قديم يصل ماردة وسلمنقة ، وبجوار نهر حمل اسمه فيما بعد ، وهو فاموتا أى نهر موسى ، وذلك بعد أن اتخذ كل الاحتياطات ، حتى لا يؤخذ على غرة . ولما وصات القوات الاسلامية الى منتصف الطريق السالف الذكر ، اعتقد لوذريق أن الوقت قد حان ليضرب ضربته الأخيرة ، وأن المسلمين لن يجدوا من ينقذهم أو يسادر الى مساعدتهم . وعند ناحية اسمها السواقى ، على مقربة من ثمامس شن لوذريق هجومه ، دون أن يدري أن موسى بن نصير - شأن أسلافه من القادة المسلمين - قد اتخذ كل الوسائل ليحمى قواته ويجنبها الأخطار . ولذا صمد المسلمون لهجوم القوط ، وأنزلوا بهم خسائر فادحة ، وقتلوا كثيرا منهم ، كان من بينهم لوذريق نفسه ، الذى قتله مروان بن موسى بن نصير . وصار الطريق الى طليطلة مفتوحا أمام موسى بن نصير ، فسار حيث التقى بطارق وقواته ، التى كانت قد غادرت تلك المدينة في سبيلها الى مقابلته في عرض الطريق .

ولما كان هجوم لوذريق على قوات موسى بن نصير شعبة من مؤامرة مزدوجة استهدف طرفها الثانى السيطرة على طليطلة وانتزاعها من المسلمين ، اذا ما خرج طارق منها لنجدة اخوانه ، فان جماعات من القوط انتهزت خلوا العاصمة من الحامية الاسلامية واستولت عليها اكمالا لحلقة المقاومة ضد المسلمين . غير أن القوات الاسلامية المشتركة بقيادة موسى بن نصير وطارق

ابن زياد تمكنت من هزيمة القوط ، والسيطرة على طليطلة مرة ثانية .

وبذلك انتهت مقبلاومة لوزريق وجنوده بمجىء قوات موسى بن نصير على عجل ولولا ذلك لانهارت أعمال طارق ، واصيب جنده بكارثة مروعة . فالقوط احكموا خططهم على اساس قطع خطوط مواصلات المسلمين ، والاستفادة من معرفتهم بمعاقل اسبانيا وحصونها . وتكلف موسى بن نصير نفسه في عملية الانقاذ جهدا كبيرا فاق ما بذله طارق نفسه في كل فتوحه .

وفي طليطلة اخذ موسى بن نصير يحاسب طارقا على اندفاعه الذى كاد ينزل بالمسلمين كارثة مجققة ، ولا سيما بعد ان ثبت عمليا ان القوط كانوا قد اعدوا حركة مقاومة عنيفة . ورددت بعض المراجع ان موسى شد وثاق طارق ، وحبسه وهم بقتله لولا تدخل مفيث الرومى ، مندوب الخلافة فى الحملة الاسلامية الى اسبانيا ، واسراعه بابلاغ هذا الحادث الى الخليفة الوليد بن عبد الملك ، الذى امر موسى بعدم انزال الاذى بطارق . غير ان هذه الرواية استندت الى شائعات مغرضة ردها القائد مفيث الرومى الذى كان بينه وبين موسى بن نصير سوء تفاهم ، فانتهاز فرصة ذهابه الى دمشق ليلبغ الخليفة انباء انتصارات المسلمين واساء الى سمعة هذا القائد . غير ان المقطوع به هو ان موسى بن نصير عنف طارقا ، « ووضع السوط على راسه » فقط ، رمزا لعقابه .

ولم يتعد المجلس الذى عقد لمحاكمة طارق أكثر مما سلف ذكره ، لأن موسى بن نصير كان يكن لطارق بن زياد كل تقدير ومحبة ، وأن المودة بينهما ما زالت متبادلة . فقال موسى لطارق معترفا له بما ناله من نصر قائلا : « لن يجازيك الوليد بن عبد الملك على بلائك بأكثر من أن يبيحك الأندلس ، فاستبجحه هنيا مريا . فقال له طارق : أيها الأمير ، والله لا أرجع عن قصدى هذا ما لم

أنته الى البحر المحيط » . وهكذا لم يحاول موسى بن نصير على الرغم من محاكمته لطارق أن يغمطه حقه في الفتح أو يقلل من شأنه ، وإنما اعترف له بمكانته وتقدير الخلافة له . وكل ما تدل عليه هذه المحاكمة هو أن موسى بن نصير كان يتحلى بحزم القائد ، وأنه لم يشأ أن يتهاون في محاسبة فرد ما على ما يبدر منه من عمل يعرض الجند للخطر ، مهما كانت منزلة العاملين تحت امرته . ومن ثم كان « الضبط والربط » بلغة الوقت الحاضر من الصفات التي جعلت جيش موسى بن نصير ينطلق في الفتوح آمنا ، دون أن يصاب بنكسات أو كوارث . وضرب موسى بن نصير المثل الأعلى في الوقت نفسه على احترامه للخبرات العاملة معه ، حين أشاد بالمكاسب التي حققها طارق بن زياد ، وسمح له باستئناف الجهاد تحت رايته .

وعقد موسى بن نصير في طليطلة مع طارق بن زياد مجتاسا حربيا للدراسة الوضع في اسبانيا ، واستعراض ما تم من فتوح ، وما ينبغي أن يقوم به المسلمون بعد ذلك من عمليات حربية أخرى . وكان يتحتم على المسلمين دراسة أوضاعهم في اسبانيا دراسة مستفيضة ، لأن القوط وفلولهم لا تريد أن تلقى السلاح ، وإنما عمدت الى المراوغة والمخاتلة ، وهو أمر يتعب كل جيش فاتح . فالجيوش تفضل النزال في معارك يتقرر بعدها الوضع الحربي ، ولا تستريح للحروب المتقطعة وأعمال الاغارات المتفرقة المبعثرة . ولهذا استقر رأى كل من موسى بن نصير وطارق بن زياد على القيام بمسح حربي شامل لسائر الأجزاء الاسبانية التي لم تفتح بعد ، ونشر الاسلام بين ربوعها ، وتطهيرها تطهيرا شاملا من جيوب القوط وفلولهم . وأثبت موسى بن نصير بذلك أنه مازال يولى طارق بن زياد ثقته المطلقة ، وأخذا يعملان معا في تدوين السطور الأخيرة لاغزاز الدين الاسلامي ، ورفع رايته في تلك الرقعة من أرض أوربا .

غير أن موسى بن نصير لم يغفل وسط دراساته الحربية ما فطر عليه من مواهب إدارية من شأنها العمل على إقرار ما تم له من فتوح قبل أن يتابع الزحف الحربى على مكان آخر ، وهى السياسة التى اتبعها فى بلاد المغرب . فلم ينطلق موسى بن نصير فى أرجاء المغرب الا بعد أن نظم أحوال « افريقية » وأمن أرجاءها . وسار على هذا المنوال بعد أن فتح طليطلة . فرأى ارضاء أبناء غيطشة حتى ينزع ما فى قلوبهم من مخاوف أو أطماع ، وخاصة بعد أن رأوا أن المسلمين ما جاءوا الا للفتح والاستقرار فى اسبانيا ، لا للحصول على المفاتيح فقط . فعين نفرا من أولئك الأبناء فى مراكز كبيرة بالبلاد التى أتم المسلمون فتحها ، واحتفظ لهم بسالف مكانتهم العالية . من ذلك أنه نصب أخا غيطشة ، وهو أبه ، الذى ساعد المسلمين مساعدة كبيرة ، نصبه أسقفا على طليطلة ، وهو منصب دينى كبير ، يجعل صاحبه ذا مكانة مرموقة فى المجتمع .

واتبع موسى هذه الخطوة بعمل إدارى رائع لتنظيم أحوال البلاد . فأمر ، وهو فى طليطلة بضرب عملة ذهبية دفع منها رواتب الجند العاملين تحت امرته . ويعتبر سك هذه العملة الذهبية دلالة على سيطرة موسى بن نصير على الأوضاع فى هذه البلاد الأوربية الجديدة ، وعلى مهارته الفائقة فى بناء إدارة عربية مستقرة الأركان فى اسبانيا ، منذ الأيام الأولى للفتح الإسلامى لها . وكانت هذه العملة الذهبية الاسبانية على غرار العملة التى سبق أن سكها موسى بن نصير فى بلاد المغرب . فكان على وجه من هذه العملة اسم « محمد رسول الله » ، وعلى الوجه الآخر نجمة ذات ثمانية أذرع . وإلى جانب ذلك أمر موسى بن نصير بضرب عملة برنزية صغيرة لمساعدة الناس على تسهيل عملياتهم اليومية .

واختار موسى بن نصير فى تلك الفترة أحد رجاله الصالحين ،

وهو التابعى على بن رباح ، وأرسله الى الخليفة الوليد بن عبد الملك ليبلغه ما تم للمسلمين من نصر ، واستقرار فتوحهم في اسبانيا . وخرج مع هذا التابعى مندوب الخلافة في اسبانيا ، وهو مغيث الرومى ، ليشارك في نقل صورة عن جهاد المسلمين في اسبانيا .

وشاءت الأقدار أن يدخل سفير موسى بن نصير على بن رباح الى المسجد في دمشق عند صلاة العصر ، وسمع القاضى يتحدث عن موسى بن نصير . وعندئذ اعتلى هذا السفير المنبر وقام يدافع عن موسى بن نصير ، فقال : « أيها الناس ، الله الله في موسى والدعاء عليه . والله ما نزع يدا من طاعة ولا فارق جماعة أنه لفى طاعة أمير المؤمنين والذب عن حرمت المسلمين والجهاد للمشركين ، وإنى لأحدثكم عهدا به ، وما قدمت الآن الا من عنده ، وأن عندي خبره ، وما أفاء الله على يده لأمر المؤمنين ، وما أيد به المسلمين ما يقر به أعينكم ويسر به خليفتكم » .

ولما ترامت الى الخليفة الوليد أنباء ما حدث في المسجد ، أسرع في طلب مندوب موسى بن نصير ، وقال له : ما وراءك ؟ . فقال : ما تحب يا أمير المؤمنين ، فإن الله قد نصر موسى بن نصير في الأندلس ، وفتح على يديه ما لم يفتح على أحد ، وقد أوفدنى الى أمير المؤمنين في نفر من وجوه من معه ، مبشرين بما تم من فتوح ، ثم سلم الخليفة كتاب موسى بن نصير . فلما انتهى الوليد من قراءة الكتاب خر ساجدا شكرا لله .

وفي تلك الأثناء كان موسى بن نصير قد أتم تنظيماته في طليطلة ، واستأنف الجهاد . وكان الاتفاق قد تم بينه وبين طارق في المجس الحربى ، على أن الوضع الحربى يتطلب الزحف شمالا لتأمين موقف المسلمين في طليطلة وغيرها من الجهات التى سيطر عليها المسلمون . فزحف موسى ومعه طارق نحو الشمال الشرقى لفتح حوض الأبرو وما فيه من مدن . واشترك طارق مع موسى

في هذه الحملة ، لأن المقاومة الشديدة التي سبق أن أظهرها القوط حملت القيادة الإسلامية على جمع جهودها ، وتنسيق أعمالها بما يجنب المسلمين الأخطار مرة أخرى .

وقصدت القوات الإسلامية بقيادة موسى بن نصير مدينة سرقسطة ، واقتربت منها على حين غفلة من أهلها . وأراد أسقف المدينة ومن معه من الرهبان جمع ذخائرهم وكنبهم المقدسة والفرار بها . غير أن موسى بن نصير بعث اليهم رسولا من قبله أزال مخاوفهم ، وأعطاهم العهود والمواثيق بالأمان . وبذلك استولى المسلمون على المدينة دون قتال ، وشيدوا بها مسجدا ، صار فيما بعد أحد المراكز الكبرى لنشر الدين الإسلامي وحضارته في اسبانيا . وقام ببناء هذا المسجد أحد التابعين في جيش موسى بن نصير ، وهو حنش بن عبد الله السبائي الصنعاني .

وتابع موسى بن نصير زحفه بعد ذلك ، واستولى على كثير من المدن الهامة في تلك الجهات . ويبدو أن المؤن بدأت تقل عند الجند ، مما دعا موسى إلى العمل على رفع الروح المعنوية بينهم . فقال أحد قادة الجيش ، وهو عبد الله بن المغيرة بن أبي بردة : كنت ممن غزا مع موسى بن نصير حتى بلغنا سرقسطة ، ثم أتينا على مدينة على بحر ولها أربعة أبواب ، وفرض علينا المسلمون الحصار ، وكان الموقف يتطلب البقاء على هذا الحصار مدة طويلة . والتفت موسى إلى نفر من قادته ، وقال لهم : هل معكم مؤن تكفيكم مدة الحصار ، ولكنهم أجابوا بالنفي . وعندئذ عدل خطته ، واقتحم الأسوار عنوة ، ووجد الجند المسلمون في المدينة من المؤن ما فرج ضيقهم ، وساعدهم على استئناف القتال .

وتتابعت مواهب موسى بن نصير في الكشف عن نفسها في تلك الجهات الجبلية الوعرة ، ودأبه على رفع روح جنده المعنوية . فذكر قائد آخر ممن اشتركوا مع موسى بن نصير في القتال شمالي

سرقسطة قائلا : حاصرنا حصنا لم نقدر عليه . فلما طال ذلك نادانا موسى بن نصير ثم قال : أيها الناس ، انى أمام الصفوف ، فاذا رأيتمونى قد كبرت وحملت فكبروا واحملوا . واستولت الدهشة على عقول الناس ، وخشوا مغبة هذه المفامرة ، بعد أن طال حصارهم للحصن دون جدوى . وظل موسى يكبر والناس من ورائه ، ثم هجم على الحصن بعنف ، فانهدمت جدرانه ، وانطلقت خيالة المسلمين الى الداخل ايذانا بالنصر .

وردت الروايات أحداثا تدل على أن موسى كان يحب الفأل الحسن . ومن ذلك أنه حين مر بمدينة من المدن ، تقدم اليه أسقفها وقال له ، انا لنجدك في كتب الحدثان عن دانيال بصفتك صيادا بشبكتين ، رجل لك في البر ، ورجل في البحر ، تضرب بهما ها هنا وها هنا فتصيد . وسر موسى بهذا القول واعجبه وتفاعل به . وظلت القوات الاسلامية تتابع زحفها حتى بلغت مشارف جبال البرت (البرانس) ، وشاهد المسلمون سكان تلك الجبال من القبائل البسقاوية (البشكنس) ، واستمعوا الى لغتهم الغريبة التركيب والأصوات .

وفي الوقت الذى كان فيه موسى بن نصير يبذل كل ما لديه من جهد لتأمين ممتلكات المسلمين شمالى سرقسطة جاءه مندوب الخلافة ، وهو مفيث الرومى ، ومعه أمر من الخليفة الوليد ، لكل من موسى بن نصير وطارق بن زياد بالمجيء الى البلاط ومقابلته شخصا في دمشق . ورأى موسى بحنكته الحربية ، ومقدرته السياسية أن هذا الاستدعاء جاء في وقت غير مناسب ، لأن مطاردة القوط لم تنته بعد ، كما أن فتح البلاد يتطلب السيطرة على المعقل الشمالية الجبلية . أضف الى ذلك أن موسى أحس أن أمرا قد دبر له في دمشق ، ويحتمل أن هذا التدبير هو السر في استدعائه الى عاصمة الخلافة . ولكن موسى بن نصير الذى لم يعرف غير التفانى في أداء الواجب ألح على مفيث الرومى أن يؤجل

تنفيذ طلب الاستدعاء حتى ينتهى من العمليات الحربية ، ومنحه قصرا في قرطبة يقيم فيه ريثما يفرغ المسلمون من مهمتهم .

وكان موسى على حق حين طلب الى مغيث السماح له أولا بالانتهاء من عملياته الحربية . اذ كان امامه عمل آخر خطير وشاق ، وهو الاستيلاء على جهات قشتالة ، لانها تعتبر المركز المباشر الذى يمكن أن يهدد منه القوط طليطلة وغيرها من البلاد الاسلامية ، ثم ان اقترابها من الجهات الجبلية الوعرة يساعد كل من يتحصن بها على أن يبقى على المقاومة زمنا طويلا . ولذا قسم موسى قواته قسمين ، عهد بواحد منهما الى طارق ، وجعل مهمته السير غربا ، على حين قاد هو الشطر الثانى واتجه فى البلاد شرقا . وقصد طارق بن زياد الى جبال كنتبرية ، وأخضع جماعات البسقاوية غربى نهر الابرو . ودخل كثير من سكان تلك الجهات فى الاسلام على يد طارق بن زياد ، وصاروا يكونون نواة كثير من الأسر الأندلسية الاسلامية ، التى قدر لها أن تمثل دورا هاما فى تاريخ البلاد فيما بعد .

وفى الوقت نفسه سار موسى بن نصير على الضفة الشرقية لنهر ابرو فى اقليم قشتالة ، ورحب به زعماء البلاد كذلك ، ودخلوا فى طاعة المسلمين . غير أن نفرا من فلول القوط آثروا الفرار أمام الزحف الاسلامى الى المناطق الجبلية الساحلية الشمالية ، واعتصموا بمكان اسمه « الصخرة » . وطارذ موسى تلك الفلول حتى باغ خيخون ، وجعل منها حصنا يحمى ما تم على يديه من فتوح فى تلك الجهات القاصية . وصارت تلك الجهات تكون أقصى ما وصل اليه المسلمون فى منطقة اشتريس ، حيث بدأ موسى بن نصير يعد العودة للعودة من تلك الجهات النائية .

وتم فى ذلك الوقت أيضا إخضاع المنطقة الساحلية ، بين مالقة وبلنسية ، وإخماد الفتن التى حاول القوط القيام بها . واضطلع

بهذه المهمة عبد العزيز بن موسى بن نصير ، الذى اشترك مع والده فى اكمال الفتوح الاسلامية فى اسبانيا . وسار هذا القائد على نهج والده فى معاملة اهالى البلاد المفتوحة بالرفق والتسامح ، والعادل فى فرض الضرائب ، ومن ذلك ما حدث حين زحف عبد العزيز بن موسى على مالقة ثم غرناطة ، وهى كلها سلمت له دون قتال . وأخيرا وقف هذا القائد عند أريولة التى خضعت اذ ذاك لقائد من قادة القوط اسمه تدمير . وكان هذا القائد القوطى ابن أحد كبار رجال غيطشه ، ومن الكارهين للوذريق . ولذا رحب بجيوش المسلمين دون أن يرغب فى تسليم مدينته لهم . ولكن لما اقتربت جيوش عبد العزيز من عاصمته أراد أن يأخذ لنفسه ضمانات وثيقة قبل أن يسلمها لهم . ولذا لجأ الى حيلة تدل على ذكائه ومهارته ، على الرغم من قلة جنده اللازمين للدفاع عن مقره ، « فأمر النساء فنشرن شعورهن ، وأعطاهن القصب ، وأوقفهن على سور المدينة ، وأوقف معهن بقية من بقى من الرجال فى وجه الجيش حتى عقد على نفسه . ثم هبط بنفسه كهيئة الرسول ، فاستأمن فأمن ، فلم يزل يروض أمير ذلك الجيش حتى عقد على نفسه الصلح وعلى أهل بلده . فسلمت تدمير صلحا كلها ليس منها عنوة لا قليل ولا كثير ، وعاملهم على ترك أموالهم فى يديه . فلما فرغ أبرز لهم اسمه ، وأدخلهم المدينة ، فلم يروا فيها أحدا عنده مدفع . »

ويبدو أن عبد العزيز بن موسى بن نصير أراد دعم سياسة المسلمين فى تلك الجهات بالتسامح مع أهلها ، وبخاصة من عرف عنه من رجال القوط الكراهية للعهد القديم . ولذا رضى أن يمنح تدمير معاهدة صارت نموذجا للوثائق السياسية الاسلامية فى عصر الفتوح فى اسبانيا ، ومنها ما يلى :

« نسخة كتاب الصلح الذى كتبه عبد العزيز بن موسى لتدمير عبدوش - بسم الله الرحمن الرحيم من عبد العزيز الى

تدمير ، انه نزل على الصلح ، وأنه له عهد وذمة ، ألا ينزع عنه ملكه ، ولا أحد من النصارى عن أملاكه ، وأنهم لا يقتلون ولا يسبون أولادهم ولا نساؤهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا تحترق كنائسهم ما تعبد وتصح ، وأن الذى اشترط عليه انه صالح على سبع مدائن . . . وأنه لا يأوى لنا عدوا ، ولا يخون لنا أمنا ، ولا يكتم خبرا علمه . وأنه عليه وعلى أصحابه دينارا كل سنة ، وأربعة أمداد قمح ، وأربعة أمداد شعير ، وأربعة أقساط خل ، وقسطى عسل ، وقسطى زيت ، وعلى العبد نصف ذلك . كتب فى أربع من رجب سنة أربع وتسعين من الهجرة . »

وتمثل هذه المعاهدة السياسة الحكيمة التى سار عليها موسى بن نصير فى فتح اسبانيا ، وهى السياسة التى جعلت البلاد تدخل عهدا جديدا ، حمل لها الكثير من التطورات الهامة الاجتماعية والسياسية والثقافية . فالمعروف ان اسبانيا قبل الفتح الاسلامى كانت تعاني من جور القوط وظلمهم . فقد حكمت اقلية طاغية شعبا بأسره ، وفرضت عليه الضرائب الفادحة ، فضللا عن العبودية والدلة . أما الاسلام فحمل اليهم نعمة العدل والحرية والمساواة . وكان موسى بن نصير - على الرغم من انشغاله بالفتوح - حريصا على تنظيم ادارة البلاد بالقدر الذى يستطيع القيام به . ولذا شاهدت اسبانيا ، مع دخول الجيوش الاسلامية فيها روحا جديدة من العزم والامل . فبدأت الزراعة تزدهر ، وتنشط التجارة والصناعة بعد ركود طويل .

وشعر أهالى البلاد مع امتداد الفتح الاسلامى طلائع المساواة ، وخاصة فى الضرائب ، وهو أمر لم يألوه منذ زمن طويل . هذا الى احترام حرية العقيدة ، وإزالة الاضطهاد الدينى . وردد كثير من الباحثين فى التاريخ الأوربى المظاهر الجديدة التى سادت الشطر الغربى من أوربا فى بلاد اسبانيا ، عقب الفتح الاسلامى . وسجلت لهذا الدين الحنيف مظاهر الحياة الجارية الوثابة

التي نفحها في تلك البلاد . فذكر أحد المؤرخين : « كان الفتح العربى من بعض الوجوه نعمة لاسبانيا ، فقد أحدث فيها ثورة اجتماعية هامة ، وقضى على كثير من الأدواء التي كانت تعانيها البلاد منذ قرون ... وتحطمت سلطة الأشراف والطبقات الممتازة أو كادت تمحى ، ووزعت الأراضي توزيعا كبيرا ، فكان ذلك حسنة سابقة ، وعاملا في ازدهار الزراعة إبان الحكم العربى . ثم كان الفتح عاملا في تحسين أحوال الطبقات المستعبدة ، إذ كان الاسلام أكثر معاضدة لتحرير الرقيق من النصرانية كما فهمها أخبار المملكة القوطية ، وكذا تحسنت أحوال أرقاء الضياع ، إذ غدوا من الزراع ، وتمتعوا بشيء من الاستقلال والحرية » .

وأضاف مؤرخ آخر وصفا للتطورات التي حدثت لاسبانيا نتيجة الفتح الاسلامى قائلا : « فى أقل من أربعة عشر شهرا قضى على مملكة القوط قضاء تاما ، وفى عامين فقط وطدت سيطرة المسلمين فيما بين البحر المتوسط وجبال البرنيه . ولا يقدم لنا التاريخ مثلا آخر اجتمعت فيه السرعة والكمال والرسوخ بمثل ما اجتمعت فى هذا الفتح . وقد كان المظنون فى البداية أن الفزو إنما هو أمر مؤقت فقط ، ولم يتوقع أحد أن يكون استقرار المسلمين دائما . فلما استقر المسلمون ، وفتحت الثغور للتجارة ، وأقيمت المساجد ، أدرك القوط فداحة الخطب الذى حل بهم . ولكن اعتدال المسلمين خفف من ألم الهزيمة . وكان دفع الجزية يضمن الحماية لأقل الناس ، وكان يسمح للورع المتعصب أن يزاول شعائره دون تدخل ، كما يسمح لكل فرد أن يجاهر بآرائه دون خشية المطاردة ، والأخبار يزاولون شئونهم فى سلام . أما قول الكتاب النصارى التى ينسبون فيها للعرب أفظع المثالب فهى محض مبالغة أو افتراء » .

وليس فى أقوال المؤرخين السالفى الذكر شيء من المبالغة ،

ذلك أن موسى بن نصير ، فاتح الأندلس ، استطاع بفضل قيادته الحكيمة أن ينقل الاسلام الى تلك الجهات بالصورة الرائعة التي انتقل بها هذا الدين الحنيف الى شتى أرجاء العالم . وفي الوقت نفسه امتاز موسى بن نصير على أقرانه من قادة الفتوح العربية في الجهات الأخرى ، بأنه استطاع دعم أوتاد هذا الدين في بيئة جديدة ، هي بيئة غرب أوروبا ، التي لم يكن العرب يعرفون عنها شيئا حين نزلت الدعوة الاسلامية بين ظهرانهم . فبينما كان العرب قبل الاسلام يعرفون معرفة جيدة أرض فارس واکاسرتها ، وبلاد الروم وقياصرتها كانوا لا يعرفون شيئا عن شبه جزيرة أيبيريا وجماعاتها من القوط .

ومن ثم تتضح مقدرة موسى بن نصير ، وما انفرد به من عمل جليل في سبيل نشر راية الاسلام حين نتابع جهاده خطوة خطوة في تلك الرقعة من غرب أوروبا . فالشعب الأيبيري الذي نقل اليه موسى بن نصير الاسلام كان شعبا أوروبيا ، في داخل نطاق الحضارة الرومانية القديمة ، يتكلم بلغة رومانية أيبيرية يغلب عليها الطابع الروماني . وسمى العرب تلك اللغة حين سمعوها لأول مرة باسم لغة العجم . ولكن موسى بن نصير بعد أن دخل الأندلس حرص على أن يظهر لأولئك السكان أن المسلمين لم يدخلوا سادة قاهرين ، بل دخلوا اخوة يكون لهم كل ود وتقدير ، وبعبارة أخرى جعل موسى بن نصير امتداد الاسلام الى اسبانيا جزءا من حركة الامتداد الديني الفكري التي بعثها الاسلام في العالم القديم في القرن السابع الميلادي . فما كاد الاسلام يصل الى بلد من البلاد حتى أيقظ أهله ودفعهم لحمل رايته .

وكان موسى بن نصير أيضا حريصا على أن يظل المسلمون العاملون تحت رايته ، سواء من العرب أو البربر مثلا عليا أمام شعب اسبانيا . فلم يترفع أولئك الفاتحون المسلمون على أبناء البلاد ، وإنما امتزجوا معهم وصاهروهم ، وشاركوهم أيضا في

مباهج البلاد ومسراتها ، يطلبون العيش في سلام جنباً الى جنب مع أهلها . وكان شعب اسبانيا من العنصر الأيبيري المسالم المحب لحسن العشرة ، ومن ثم أنس الى الفاتحين الجدد سواء من العرب أو البربر وأقبل عليهم طواعية لا عن ضغط وارهاب ، ووجد فيهم محررين من بطش القوط وظلمهم الفاحش . وحرص موسى بن نصير عندما تم له فتح الأندلس أن يوضح للشعب الاسباني أن المعركة كانت منذ أيامها الأولى معركة ضد القوط ، وليست ضد الشعب الآمن الوديع . ولم يحاول الفاتحون ادخال أبناء الشعب قسراً في الدين الاسلامي ، وإنما حرصوا أولاً على بيان فضائل هذا الدين حتى يتبينه الناس ، ويدخلوا في رحابه ايماناً بآركانه وقواعده .

ثم عهد موسى الى تنظيم الأحوال المالية للبلاد ، حتى يجنبها الاضطرابات ، ويهيئ لها أسباب الاستقرار . وقد طبق على اسبانيا القواعد التي اتبعها العرب الفاتحون في شتى الجهات التي استولوا عليها . فالأراضي التي فتحت عنوة قسمت بين الفاتحين بعد أخذ الخمس لبيت المال ، أما الجهات التي فتحت صلحاً فتركت بيد أصحابها مقابل دفع العشر من نتاجها . على حين ذكرت إحدى الروايات أنه بعد أن تم فتح المسلمين للأندلس قسمها موسى بن نصير بين الجيوش « وأخرج من أرضها ورباعها الخمس ، كما أخرج من سبيلها ومتاعها . . . وأما سائر الناس النصراني الذين كانوا في المعقل المنيع والجبال الشامخة ، فأقرهم موسى بن نصير على أموالهم ودينهم بأداء الجزية ، وهم الذين بقوا على ما حيز من أموالهم بأرض الشمال ، لأنهم صالحوا على جزء منها مع أداء الجزية ، في أرض الثمر وأرض الزرع ، على ما فعوا خير من اقتدى به صلى الله عليه وسلم يهود خيبر في نخلهم وأرضهم » .

ولا شك أن هذا التنظيم المالي لم يكن عملاً هيناً بالنسبة

لموسى بن نصير ، وبخاصة فى تلك الجهات من غرب أوربا ، التى لم تعرف منذ زمن بعيد لونا من ألوان الإدارة العادلة . فالمعروف أن القوط كانوا يستبيحون لأنفسهم ثروات البلاد ، ويعتبرون السكان أقنانا يعملون فى الأرض ، ولا هم لهم الا انتاج ما يحتاج اليه ساداتهم من القوط . ولذا جاءت تنظيمات موسى بن نصير فى اسبانيا وسيلة جيدة لخلق الامتزاج السليم بين الفاتحين وأهل البلاد الأصليين . فالأراضى المنبسطة فى الجنوب ، أى جنوب الوادى الكبير إعتبرها موسى بن نصير أرضا مفتوحة عنوة ، فقد تم الاستيلاء عليها بعد معارك عنيفة ضد لوزريق . وقسم موسى بن نصير أربعة أخماس هذه الأرض الى اقطاعات بين الفاتحين ، على حين بقى الخمس ملكا للدولة . أما بقية أرض الأندلس فقد اعتبرت أرض صلح ، وهى الأراضى الواقعة شمال الوادى الكبير من شبه جزيرة أيبيريا . فأخذ أهل كل ناحية لأنفسهم عهدا ، وهذا العهد يقرر ما عليهم من مال للدولة .

وبذلك سار الاستقرار فى بلاد اسبانيا سريعا حيثما سار موسى بن نصير ، وبدأ العرب والبربر ينتشرون فى شتى الجهات فى طمأنينة وسلام . واستقر العرب دائما فى المناطق المنبسطة والمنخفضات ، أى فى النواحي الدافئة قليلة المطر فى الجنوب والشرق والغرب وفى ناحية سرقسطة . أما البربر فاختاروا المناطق الجبلية التى سبق أن ألفوا مثلها فى وطنهم ببلاد المغرب . فبينما نزل العرب فى المناطق الواطئة بجنوب اسبانيا مثل شدونه واستجه ، فضل البربر منطقة رنده الجبلية ، واختاروها سكنا لهم . ونزل بعض البربر فى مناطق متفرقة كذلك أو فى بعض الهضاب حسبما راقهم ذلك .

واستطاع كل من العرب والبربر الامتزاج بأهالى البلاد الأصليين ، وارتبطوا معهم برباط الزواج . وكان للبربر خاصة أثر عظيم جدا فى انتشار الاسلام فى الأندلس ، بسبب قرب

مزاجهم وطباعهم من أولئك السكان . هذا الى أن البربر بسبب حداثة عهدهم بالاسلام كانوا شديدي الحماسة للدين الجديد ، لأنه صار رمز سيادتهم وعزهم . وحرص موسى بن نصير على ترك حاميات من جيشه في المدن التي فتحها ، وهذا هو الأمر الذي جعل معظم أرجاء اسبانيا تعمر بالفاتحين الجدد ، وتمهد اسبانيا في سرعة ويسر لاعتناق الدين الاسلامي الحنيف .

وبهذا نقل موسى بن نصير الى غرب أوروبا دماء جديدة ودينا حنيفاً ، وإدارة عربية حازمة . وساعد هذه الإدارة أيضاً على أداء مهمتها في سهولة ويسر وجود نفر من خيرة العمال العرب الذين نصبهم موسى بن نصير عمالاً على المدن والأقاليم الأسبانية . وكان من بين أولئك العمال نفر من مشاهير التابعين ، هذا الى مجموعة من أبطال البربر ، الذين اشتهروا بالتفاني في أداء الواجب . ومن أمثلة المجموعة الأولى عبد العزيز بن موسى ابن نصير ، الذي نقل عن والده القدرة في حسن السياسة والإدارة ومن أمثلة المجموعة الثانية رجل من قادة البربر ، وهو مونوسه ، الذي تولى الاشراف على نواحي اشتريس وجليقية ، التي كانت آخر ما وصات اليها فتوح موسى بن نصير .

واستطاعت الإدارة العربية التي شيدها موسى بن نصير أن تضع الحجر الأساسي لبناء الحضارة العربية في أسبانيا ، وجعلت من تلك البلاد أعظم مركز للاشعاع الحضاري في أوروبا في العصور الوسطى . ومن ثم أخذت اسبانيا تخطو سريعا في مضمار الازدهار العلمي ، وتدخل سجل التاريخ باعتبارها الشريان الذي نقل الى أوروبا ثمار العرب ومعارفهم ، وهياً لسكان غرب أوروبا السبيل للخروج من جهالة العصور الوسطى الى نور الاسلام وضوء الحضارة العربية الساطع .

الفصل التاسع

موكب النصير

موسى بن نصير عندما اقترب من جبال البرت (البرانس) ، أن سلطانا يجذبه الى ما وراء تلك الجبال ، ويدفعه الى نقل الفتوح الاسلامية الى الجهات الرحيبة هناك . وكانت تطلق على تلك الجهات في ذلك الوقت اسم بلاد الغال ، وهى فرنسا في الوقت الحاضر . ويبدو أن تفكير موسى بن نصير في عبور جبال البرانس والاتجاه الى جنوب بلاد الغال جاء وليد دراسة لأحوال دولة القوط ، ومطاردته لفلول هذا العدو العنيد . ذلك أن الاقليم الجنوبي من بلاد الغال والذي عرف اذ ذاك باسم اقليم سبتمانيا كان جزءا من دولة القوط التي انهيار سلطانها على يد موسى بن نصير . ومن ثم كان بقاء اقليم سبتمانيا تحت سلطان القوط خطرا يتهدد المسلمين في اسبانيا ، حيث يمكن اتخاذه ملجأ للعناصر الكارهة والحاقدة على الفتح الاسلامي في شبه جزيرة ايبيريا ، وخصوصا أن القوط عرفوا بميلهم الشديد الى مقاومة المسلمين .

وكان يسكن بلاد الغال عنصر جرمانى آخر من العناصر التي ينتسب اليها القوط حكام اسبانيا قبل الفتح الاسلامي . ولكن العصر الجرمانى الذى سكن بلاد الغال امتداز على عنصر القوط

بقدرته على تجديد نشاطه ، وعدم الركون الى الهدوء والدعة
والأخذ بمظاهر الترف . ويعرف هذا العنصر باسم « الفرنجة » ،
الذى تطلع الى بسط سلطانه على سائر أرجاء بلاد الغال ، في
الوقت الذى سيطر فيه موسى بن نصير على معظم جهات اسبانيا .
وتولى حكم دولة الفرنجة في الوقت الذى اقترب فيه موسى بن نصير
من جبال ألبرب ملك اسمه شارل ، وهو الذى عرف في المراجع
العربية باسم « قارله » .

واشتهر قارله بالدهاء ، واتباع الحذر في بسط سلطانه على
بلاد الغال . فلم يشأ أن يتعرض لأقليم سبتمانيا التابع للقوط
حتى ينتهى من دعم نفوذه في شمال البلاد . وكذلك أثر ألا يتدخل
في شئون هذا الاقليم حين أرسل موسى بن نصير عدة حملات
استطلاعية الى سبتمانيا ، من أجل مطاردة فلول القوط . وكانت
الحملات الاسلامية قد سيطرت على قرقشونة وأربونة وغزت
أيضا وادى الرون الذى أطلق عليه العرب اسم نهر « رذونة »
وقد اضطرب حكام الفرنجة نتيجة امتداد الزحف الاسلامي
الحربي الى بلادهم ، واتجهوا الى قارله يتشاورون معه في
الموقف ، ويتدبرون معه الأمر كذلك .

وقال الفرنج للمكهم قارله : « ما هذا الخزي الباقي
في الأعقاب ؟ ، كنا نسمع بالعرب ونخافهم من جهة مطلع الشمس
حتى أتوا من مغربها ، فاستولوا على بلاد الأندلس وعظيم ما فيها
من العدة والعتاد ، وقلة عددهم وكونهم لا دروع لهم . » فأجابهم
قارله : الراى عندى ألا تعترضوهم في خرجتهم هذه ، فانهم
كالسيل يحمل من يصادره ، وهم في اقبال من أمرهم ، ولهم نيات
تغنى عن كثرة العدد ، وقلوب تغنى عن حصانة الدروع . »
وهكذا راى قارله عدم التعرض للمسلمين في تلك الأيام الأولى
من اغارتهم على جنوب فرنسا ، وأثر ترك هذا الوضع الى
ما قد ينكشف عنه الأمر من تصريف الأقدار .

وكان موسى بن نصير قد استولت عليه فكرة بعد أن اضرب من جبال ألبرت ، خلاصتها أن يخترق بجيشه جميع بلاد أوروبا حتى يصل الى الشام عن طريق القسطنطينية ، وأن يستولى أثناء ذلك على جميع البلاد الأوربية . فروت المراجع أن موسى بن نصير راودته فكرة ، « أن يأتى الى المشرق من طريق القسطنطينية ويتجاوزها الى الشام ودروب الأندلس ويخوض ما بينها من بلاد الأعاجم وأمم النصرانية مجاهدا فيهم داعيا لهم الى أن يلحق بدار الخلافة » . ورأى موسى بن نصير أن ينفذ هذا المشروع العظيم عن طريق اعداد جيش ضخم يخترق به جبال ألبرت ، ويساعده أسطول بحرى كبير يسير بأزاء الساحل الجنوبي لأوروبا ، ثم يبدأ بالاستيلاء على دولة الفرنجة ، ثم يتبعها بالسيطرة على بلاد لومبارديا بشمال إيطاليا ، ثم روما فى وسط تلك البلاد ، وينطلق أخيرا فى سهول الدانوب حتى يصل الى القسطنطينية ومنها يعبر آسيا الصغرى حتى يدخل دمشق .

ويبدو أن السبب فى رواج هذه الرواية ، والتصاقها بموسى بن نصير هو المحاولات الإسلامية العديدة التى قامت بها الخلافة الأموية فى دمشق من أجل السيطرة على القسطنطينية وقد عجزت هذه الحملات عن تحقيق مهمتها ، برغم قرب القسطنطينية من قاعدة الخلافة الأموية . وقد فرضت إحدى تلك الحملات الإسلامية الأموية حصارا برىا بحريا على القسطنطينية أيام الخليفة معاوية بن أبى سفيان ، استمر سبع سنوات . ولذا راودت موسى بن نصير هذه الأحلام العريضة فى الزحف على القسطنطينية عبر جنوب أوروبا . ويحتمل أن أحوال أوروبا اذ ذاك جعلت هذا القائد يعتقد أن تحقيق مشروعه أمرا هينا . فمعظم دول غرب أوروبا وجنوبها كانت تسكنها عناصر جرمانية مفككة ، تفتقر الى القوة اللازمة لصد المسلمين . ثم انه لم يوجد فى بلاد أوروبا أيضا شخصية تستطيع لم شمل هذه الدول المتفرقة . وكل ما هناك هو قيام بعض أبناء البيت

انفرنجى (فى غالة ، وهى فرنسا الحالية) ، ومنهم قارله ، ومحاولتهم توحيد كُمة أهل فرنسا . ولكن قارله نفسه أدرك قوة المسلمين التى سيطرت اذ ذاك على اسبانيا ، والتى هاجمت المناطق الجنوبية من بلاده نفسها فى غالة ، وآثر الانسحاب من الموقف تاركاً هذا الميدان الجنوبى تحت رحمة المسلمين .

ومهما يكن من أمر فان اغارة موسى بن نصير على اقليم سبتمانيا بجنوب بلاد الغال فتح أمامه آفاقاً جديدة ، ومشاريع مريضة بدأت تداعبه . وكانت هذه المشاريع تحتاج جرياً على سياسة العرب فى الفتوح الى تأسيس القواعد المستقرة . فالمعروف أن فتح اسبانيا لم يتم الا بعد أن دعم موسى بن نصير فتوح المغرب . وعلى هذا النحو سارت الجيوش العربية فى كل مكان ، لا تنطلق الى ميدان جديد الا بعد خلق قاعدة قوية لها ، تساعد على هذا الانطلاق ثم الفوز .

وكان موسى بن نصير نفسه ينقد أسلافه من قادة الفتوح العرب فى شمال افريقيا ، لأنهم عمدوا الى الانطلاق السريع فى البلاد قبل أن يؤسسوا لهم قاعدة قوية فى تلك الأرجاء ، ونسب الفشل الذى حل بمشاريعهم الحربية الى اغفالهم هذه الحقيقة الأولية فى فنون القتال . ودأب موسى بن نصير على أن يضرب لمستشاريه مثلاً على ذلك من أعمال عقبة بن نافع الفهري . اذ كان هذا القائد على درجة كبيرة من الكفاءة والشجاعة ، ولكنه انطلق وراء العجلة الحربية حتى بلغ شاطئ المحيط الأطلسى ، وأطال خطوط مواصلاته وتموينه ، وهو الأمر الذى دفع عقبة حياته ثمناً له ، واستشهد فى طريق عودته ، وأطاح بالتالى بشمار جهاد المسلمين فى تلك الأرجاء . ويؤثر عن موسى بن نصير أنه « قال حين دخل افريقية ، وذكر عقبة بن نافع : لقد كان غرر بنفسه حين أوغل فى بلاد العدو ، عن يمينه وشماله وأمامه وخلفه ، أما كان معه رجل رشيد » .

وشاءت الأقدار أن يسمع هذا الكلام من موسى بن نصير أحد قادته الدين رافقوه في فتح الأندلس ، وهو حبيش الشيباني . واحس هذا القائد بما راود موسى بن نصير من مشاريع واسعة بعد أن استولى على سرقسطة ، واقترب من جبال البرانس ، وبدأت الأحلام تداعبه فعلا في اختراق جنوب أوربا ، ودخول دمشق من هذا الجانب الأوربي . ويبدو أن الشائعات سرت بين الجند إذ ذاك عما اعتزم موسى بن نصير القيام به ، وأصبح الموقف يتطلب من مستشاريه إبداء النصيح الخالص له .

وتقدم حبيش الشيباني الى موسى بن نصير ، وهو على مشارف جبال البرت (البرانس) ، وأخذ بعنان فرسه ، ثم قال له : « أيها الأمير ، انى سمعتك وأنت تذكر عقبة بن نافع ، تقول ، غرر بنفسه وبمن معه ، أما كان معه رجل رشيد ؟ وأنا رشيدك اليوم ، أين تذهب ؟ ، تريد أن تخرج من الدنيا ؟ أو تلمس أكثر وأعظم مما أتاك الله عز وجل ، وأعرض مما فتح الله عليك ، ودوخ لك ؟ . انى سمعت من الناس ما لم تسمع ، وقد مأسوا أيديهم ، وأحبوا الدنيا » . فضحك موسى بن نصير وقال لحبيش : « أرشدك الله ، وكثر من أمثالك في المسلمين » . وبدأ يعد العدة للعودة الى الأندلس .

وعمل موسى بن نصير أسفا بنصيحة حبيش الشيباني ، وتخاض عن مشروعه الخاص باختراق أوربا ، والوصول الى دمشق ، حيث يلتقى بقوات المسلمين المهاجمة للقسطنطينية . إذ قال موسى وهو في طريق عودته ، منددا بالذين رفضوا السير معه في مشروعه السالف الذكر : « أما والله لو انقادوا الى لقدمتهم الى رومية (القسطنطينية) ، ثم يفتحها الله على يدي ان شاء الله » . غير أن العامل المباشر الذي حمل موسى بن نصير على أن يترك فعلا مشروع عبور البرانس والزحف على جنوب أوربا ، هو استدعاء الخليفة الوليد له ، ووصول مفيث الرومي

مندوب الخلافة عائدا من دمشق ، ومعه أمر من الخليفة يطلب فيه من موسى بن نصير وطارق بن زياد الحضور الى مقر الخلافة فورا .

وتناولت الروايات هذا الاستدعاء بشتى التفسيرات والآويل . ومنها أن السبب في الحاح الخليفة الوليد على عودة موسى بن نصير الى دمشق ، هو خوف الخلافة من استقلال موسى بن نصير بتلك الجهات النائية . ومن ثم رأى الخليفة الوليد أن يقطع السبيل على ما قد يجيش بنفس موسى من مطامح انفصالية ، ويعث اليه يعجل بعودته الى دمشق . غير أن سلوك موسى بن نصير يدحض هذه الفرية ، إذ كان على اتصال دائم بدمشق ، ينقل الى الخلافة أخبار حملته أولا بأول . أما عن السبب في تأخيره ابلاغ السلطة المركزية بأنباء تنقلاته في أول الأمر هو شدة المقاومة التي لقيها من القوط للفدر بالقوات الاسلامية الزاحفة تحت قيادة طارق بن زياد ، وكان عاينه المبادرة بتحطيم هذه المخططات . وبذل موسى بن نصير مجهودات شاقة ، حتى استطاع القضاء نهائيا على قوات القوط . وعندئذ أسرع بارسال سفارة من قبله الى دمشق لتحمل الى الخليفة انباء هذا النصر المظفر . ثم أن الخليفة الوليد قابل هذه السفارة بالشكر والحمد لله على ما هيا للمسلمين من فوز وسلامة في تلك الجهات النائية .

وردت رواية أخرى أن موسى بن نصير تلتأ في العودة الى دمشق بعد أن وصله طلب الخليفة الوليد على يد مغيث الرومي بإيقاف الغزو والرجوع الى الشام . والحقيقة هي أن موسى بن نصير تلتأ فعلا ، وإنما لصالح الفتوح الاسلامية في اسبانيا . إذ جاءه مغيث الرومي ومعه أمر العودة ، وهو قرب جبال البرت ، أي في المنطقة الشمالية الوعرة من أرض اسبانيا . ورأى موسى بن نصير بمواهبه الحربية أن سلامة المسلمين في شمال

اسبانيا ، وبخاصة بعد استيلائهم على طليطلة يتطلب السيطرة على تلك الجهات الوعرة في منطقة قشتالة . ولذا عمد الى استرضاء مغيث الرومي ورجاه أن يؤجل تنفيذ ما لديه من أمر العودة ، وأغراه بأن يمنحه نصف ما يفتح من البلاد التي يفتحها ، كما أعطاه القصر الفخم الذي يسكنه حاكم قرطبة . وقبل مغيث الرومي رجاء موسى بن نصير ، الذي بادر من فوره بالزحف على البقية الباقية من شمال اسبانيا ، مستعينا في ذلك بساعده الأيمن وهو طارق بن زياد . ومن ثم فإن تأخير موسى بن نصير في تلبية نداء الخليفة جاء نتيجة المقتضيات الحربية ، واثمام سلامة المسلمين في اسبانيا . ورأى أن يأخذ على عاتقه مغبة هذا التأخير بشجاعة الجندي ، الحريص على أداء واجبه كاملا .

وتشاء الأقدار الا أن تثبت بمرور الأيام فراسة موسى بن نصير وعلو قدراته الحربية . ذلك أن فلول القوط ، التي لم تستسلم لليأس فرت أمام زحف المسلمين الى جهات قشتالة ، حتى انتهى بها المطاف الى جبال أشتورس ، واعتصمت بقممها الشامخة ومفاوزها الصعبة . وبعد أن وصلت القوات الاسلامية الى ثغر خيخون الواقع على خليج غسقونية (بسكويه) ، عادت الى طليطلة تنفيذا لأمر الخليفة ، معتقدة أنها قد أتمت فتح البلاد . ولذا فإن عدم اعطاء الفرصة الكافية لموسى بن نصير بالبقاء في الأندلس ، حرم المسلمين من ادراك خطورة بقايا القوط التي تجمعت في جبال أشتورس . فكان المسلمون يعتقدون أن تلك البقايا لن تقوم لها قائمة ، وأن عددها في نظرهم لا يتجاوز الثلاثين رجلا . ولكن عند صخرة في تلك الأرجاء وهي التي عرفت بصخرة « بلاي » ، أخذت تنمو بذور مقاومة القوط مرة أخرى ، وهي التي ستترعرع فيما بعد وتتطور الى حركة الزحف المسيحي لاجراج المسلمين من الأندلس ، وانتزاع تلك البلاد التي صارت بفضل فتوحات موسى بن نصير تعتبر من الدولة الاسلامية جزءا هاما « أشبه

بالكم من الثوب » على حد قول المؤرخين العرب . وبعبارة أخرى فان استدعاء موسى بن نصير حرم تلك البلاد الاسبانية من خبرة هذا القائد ، الذى لم يكن رجل حرب فحسب ، ولكن رجل ادارة كذلك من الطراز الأول ، وسجل له التاريخ حرصه على أداء واجبه كاملا حتى اللحظة الأخيرة من نشاطه الحربى والسياسى فى أرض اسبانيا .

وتردد رواية أخرى قولها أن السبب فى استدعاء الخليفة الوليد لموسى بن نصير ليس الخوف من استقلاله بالأندلس ، وانفصاله عن جسد الدولة ، وانما يرجع ذلك الى الخلاف الذى نشب بينه وبين طارق بن زياد ، وما قد يؤدى اليه هذا الخلاف من ضياع قوة المسلمين فى اسبانيا . والمعروف أن الأمر لم يكن أمر خلاف شخصى بين موسى وطارق ، وكذلك لم يكن بينهما شيء من الحسد أو الفيرة . وانما الأمر كان خروج طارق على التعليمات التى كانت لديه واندفاعه وراء القوط يطاردهم الى طليطلة دون أن يدري بمخططات القوط للغدر به وبقواته . ولقد بذل موسى ابن نصير جهودا جبارة للقضاء على جيوب القوط حتى استطاع أخيرا أن ينجد طارق بن زياد ، وأن يحافظ على سلامة المسلمين . وكان من الطبيعى أن يعنف موسى بن نصير طارقا لخروجه على التعليمات التى لديه ، وأن هذا هو الأسلوب السليم المتبع فى قيادة الحروب . فالمسألة ليست نزهة حربية وانما هو فتح وأرواح جنود عديدة ، فضلا عن امكانية انهيار خطط المسلمين تماما فى اسبانيا فى ذلك الوقت ، نتيجة أى خطأ مهما كان مظهره ، مقصودا كان أم غير مقصود . واشتهر موسى بن نصير بالحزم والصرامة فى تنفيذ الواجب والأوامر ، وهى أشياء وان كانت تثير حنق نفر من الناس إلا أنها من ألزم اللزوميات فى ميادين الحروب والغزو . ومن ثم فإن ما حدث بينه وبين طارق بن زياد لم يتعد تحقيقا أجراه القائد الأعلى مع قائد أخطأ فى تنفيذ ما كان مكلفا به ،

دون أن ينقص ذلك من قدر طارق . وليس أدل على ذلك من أن موسى بن نصير استأنف مع طارق اكمال فتوح اسبانيا ، وسجلا سويا اسميهما في صفحات التاريخ باعتبارهما مثلاً رائداً للتعاون الحربى بين أبناء الأمة العربية الفتية ، لا فرق بين قائد وآخر ، سواء أكان من المشرق العربى أم من المغرب العربى ، وإنما الجميع فى خدمة أمتهم الناهضة ، وتحقيق رسالتها السامية فى نشر الاسلام فى تلك الجهات الشاسعة من أرض غرب أوروبا .

وإذا كانت الروايات التى حاولت أن تنسب استدعاء الخليفة الوليد لموسى بن نصير لا تقدر على الانتقاظ من جهاد هذا القائد وتفانيه فى أداء واجبه ، فإن حقيقة عودة موسى بن نصير الى دمشق بناء على أمر الخلافة شىء مسلم به تاريخياً ، وشهدت به كل الروايات المعاصرة وغير المعاصرة . وإن نظرة الى طبيعة الفتوح الاسلامية فى اسبانيا خاصة ، وإلى الفتوح الاسلامية فى شتى الأرجاء اذ ذاك عامة توضح لنا السبب الذى من أجله استدعى الخليفة الوليد قائده موسى بن نصير من أقصى الطرف الشمالى لشبه جزيرة أيبيريا ، ثم وقوف تيار الزحف الاسلامى عند تلك الأرجاء النائية . أما من حيث طبيعة الفتوح الاسلامية فى اسبانيا فإن الوضع الحربى بات يتطلب من الخليفة ضبط العجلة الحربية فى تلك الجهات ، والحيولة بينها وبين الانطلاق المخيف فى جنوب أوروبا . اذ لا شك أن الأنباء التى بلغت الخلافة عن مشروع موسى بن نصير الخاص باختراق جنوب أوروبا والوصول الى دمشق عن طريق الاستيلاء على القسطنطينية ، لا شك أنها أنباء مزعجة ، تستلزم سرعة العمل على تلافيها . هذا فضلاً عن أن نصيحة حبيش الشيبانى لموسى بن نصير تؤكد أن خوف الخلافة من تمادى هذا القائد فى مشروعه ليس وهماً ، ولكنه أمر قد يكون وخيم العاقبة . وإذا كان حبيش الشيبانى قد أراد أن يكون الناصح الأمين لموسى بن نصير ، حين أعاد الى

ذاكرته رأيه في عقبة بن نافع الفهري ، فان الخليفة أراد ألا يلقى موسى نفس مصير عقبة ، وعجل باستدعائه الى دمشق ليحمي قائده ، ويحمي فتوحات المسلمين في اسبانيا .

ومن ناحية أخرى أراد الخليفة الوليد أن يقف من عجلة الفتوح الاسلامية في أوربا موقف الخليفة عمر بن الخطاب من انطلاق الفتوح في فارس وما وراءها ، ومن انطلاق معاوية بن أبي سفيان في ركوب البحر وغزو الروم . اذ دأب قادة المسلمين على دعم فتوحهم وتأمينها ، ثم بناء قاعدة راسخة لهم قبل الانتقال الى ميادين جديدة ، حتى يضمنوا سلامة تلك الفتوح وسلامة جندهم ايضا . فوقف الخليفة عمر بن الخطاب بالمرصاد لكل قائد حربي يتمادى في تنفيذ نشاطه الحربي ، ولا يسمح له بالانتقال من جبهة الى أخرى الا بعد سلامة القواعد الأولى . فلم يسمح لمعاوية بن أبي سفيان مثلاً بركوب البحر والقيام بغزوات بحرية لأن الفتوح البرية لم تستقر بعد . وظلت هذه الحكمة الحربية التي سنّها عمر بن الخطاب قاعدة التزم بها من جاء بعده من الخلفاء . فلم يبدأ المسلمون فتح بلاد العرب الا بعد دعم أحوال مصر ، التي صارت القاعدة لخروج الجيوش الاسلامية للجهات المغربية . ولم توافق السلطات الاسلامية على غزو الأندلس الا بعد أن نجح موسى بن نصير نفسه في تحويل القيروان وتونس وسبته الى قواعد تزود المسلمين في شبه جزيرة ايبيريا بالعدة والعتاد ، وتحمي ظهورهم وتقدمهم في نفس الوقت . ومن ثمّ خشى الخليفة الوليد أن يبادر موسى بن نصير الى اختراق جنوب أوربا قبل أن يجعل من اسبانيا قاعدة راسخة لفتوحه ، فيعرض جنده ونفسه لالهلاك ، ويطيح بجهاد المسلمين في شبه جزيرة ايبيريا . ولما كان تفكير الخلافة في دمشق ، باعتبارها بعيدة عن مسرح الأحداث أهدأ وأسلم ، فقد عجل الخليفة الوليد باستدعاء موسى بن نصير ، وليجنبه التردى في أشباه العاقبة التي تردى فيها عقبة بن نافع الفهري .

ومن ناحية أخرى فان استعراض الفتوح الاسلامية عامة ، شرقا وغربا على عهد الخليفة الوليد ، يبرر استدعاء موسى بن نصير الى دمشق ، والالحاح على عودته سريعا . ذلك ان عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك اتسم بقيام حركة فتوح كبرى في شرق الدولة وغربها . وانطلقت عجلة الفتوح في كل مكان انطلاقا سريعا ومظفرا ، وبصورة تدعو الى الاعجاب والانتباه في الوقت نفسه . ففي شرق الدولة تولى الاشراف على الفتوحات قائد يشبه موسى بن نصير في شجاعته وجراته وحزمه وهو الحجاج بن يوسف الثقفي . اذ انتقى هيئة من المستشارين الحربيين ، ممن يتمتعون بدرجة عالية من الكفاية ، وبعث بهم الى شرق الدولة وتوسيع أرجائها في تلك النواحي ، ونشر الاسلام بها . وبدا ان هناك نوعا من التسابق بين الحجاج وموسى بن نصير ، الأول يعمل على مد الجناح الأيمن للدولة ، والثاني يعمل على بناء الجناح الأيسر للدولة .

وانتدب الحجاج اثنين من قاداته المشاهير لأداء المهمة الكبرى في المشرق : أولهما مسلم بن قتيبة الباهلي ، والثاني محمد ابن القاسم الثقفي . واتجه الأول لفتح بلاد ما وراء النهر ، وهي الجهات التي تقع شمال نهر جيحون (نهر آموداريا الآن) . وجعل هذا القائد من مدينة مرو عاصمة خراسان قاعدة لعملياته الحربية في تلك الجهات الشاسعة . واتسمت بلاد ما وراء النهر بما اتسمت به بلاد المغرب والأندلس بوجود عناصر بشرية جديدة على المسلمين ، كانت اسمها جماعات من الأتراك . واستطاع القائد مسلم بن قتيبة بسط فتوحاته على جميع بلاد ما وراء النهر ، ودخل بلاد طوران ، أي بلاد الأتراك ، ونشر الدين الاسلامي بين هذا العنصر البشري ، الذي سوف يلعب فيما بعد اخطر الأدوار في تاريخ الخلافة الاسلامية (من حيث اضعاف هيبتها ، ثم القضاء على كيانها آخر الأمر) . وبلغت فتوح هذا القائد

أوجهها في الوقت الذي كان فيه موسى بن نصير قد أتم فتح
الأندلس .

وفي الوقت الذي زحف فيه قتيبة على بلاد ما وراء النهر
بعث الحجاج بجيش آخر يقوده صهره محمد بن القاسم الثقفي
لفتح بلاد السند كذلك . والتقى المسلمون في تلك الجهات بالهنود
ووقفوا على معارفهم القديمة ، وبدأ إقليم البنجاب من أرض
الهند يدخل في التبعية للمسلمين . وكان من المصادفات العجيبة
كذلك أن يدخل محمد بن القاسم الثقفي عاصمة البنجاب ، وهي
مدينة الملتان سنة ٩٥ هـ / ٧١٣ م ، وهي السنة التي أتم فيها
أيضا موسى بن نصير فتح أسبانيا ، وصارت بلاد الهند الشمالية
بدورها تشهد تطورا هاما في تاريخها بفضل دخول الاسلام
اليها .

وان نظرة الى هذا العرض السريع للفتوح الاسلامية في مشرق
الدولة الاسلامية يوضح في جلاء أن الخريطة السياسية للعالم
الاسلامي بدأت تتسع ، وامتدت الى بيئات جغرافية وعناصر
بشرية جديدة ، تطلب من الخلافة تنظيما خاصا وتديرا محكما .
وان نظرة أيضا الى ما تم من فتوح على يد موسى بن نصير تكشف
في روعة خلاصة عن النمو السريع للدولة الاسلامية في المغرب ،
واحتوائها على بيئات جغرافية وعناصر بشرية جديدة كل الجدة
على العرب الفاتحين . وبات الموقف السياسي والاداري للدولة
الاسلامية يفرض على الخلافة استدعاء أولئك القادة للفادة من
خبراتهم ومشاهدتهم من أجل رسم أمثل السبل للسير بهذا
الامتداد الشاسع نحو السيلامة والطمانينة .

وألفت المقادير على الوليد بن عبد الملك شرف اقتران تلك
الفتوح الرائعة باسمه وعهده . فكانت أئباء النضر تتوالى عليه
من كل مكان : من موسى بن نصير في المغرب ، ومسلم بن قتيبة
ومحمد بن القاسم في المشرق ، فيقابلها بالسجود وشكر الله ،

حتى أنه لم يكذ يفرغ من صلاة شكر الله ، حتى يستهل صلاة شكر أخرى لتلاحق أنباء الفوز والنصر . وذكرت إحدى الروايات أن الوليد استقبل رسولا من عند موسى بن نصير فقال له : ما وراءك ؟ . « فقال ، كل ما تحب يا أمير المؤمنين ، تركت موسى بن نصير في الأندلس ، وقد أوفدني إلى أمير المؤمنين في نفر من وجوه من معه بفتح من فتوحه » . فأخذ الوليد الكتاب الذي بعث به موسى بن نصير وقرأه ، ولما أتى على آخره خر ساجدا . وما كاد الوليد يرفع رأسه حتى آتاه نبأ فتح آخر فخر أيضا ساجدا ، ثم رفع رأسه فأتاه آخر بفتح جديد ، وخر الوليد ساجدا ، حتى قال شاهد العيان لهذه الحادثة : « ظننت أنه لا يرفع رأسه . »

وكانت هذه الفتوح العظيمة في الشرق والمغرب ، ووقوعها في وقت واحد سببا في اظهار شخصية موسى بن نصير ، وعلو اسمه على أسماء أقرانه من قادة تلك الفتوح . اذ تحدثت أركبان بأنباء كل فتح من الفتوح التي قام بها هذا القائد أو ذاك ، كما رددت أخبار البلاد التي دخلوها ، وما امتلأت به من غرائب ، وما حفلات به من مظاهر الثراء . وصاحب ذلك بالتسالي الموازنة بين تلك الفتوح ، والاشادة بكل منها حسبما جلبته معها من مغامير وثورات . ونالت فتوح موسى بن نصير ليست المكانة الأولى فحسب بالموازنة بينها وبين الفتوح المعاصرة لها ، بل وبموازنتها أيضا بالفتوح الأولى التي قام بها المسلمون أيام الخلفاء الراشدين . اذ وجد المسلمون في اقليم البنجاب بالهند الكثير من الكنوز في المعابد الهندية البوذية ، وكذلك في بعض مدن بلاد ما وراء النهر . ولكن أنباء تلك الكنوز لم تعد بعض الجواهر أو الأحجار الكريمة الموجودة في خزائن المعابد ، أو المعلقة على بعض التماثيل الكبيرة ذات المكانة العالية في معبودات الديانة البوذية .

ولم تلبث أخبار تلك المغامير أن تضاءلت أمام الفيض العظيم

من الكنوز التي وجدها موسى بن نصير في الأندلس ، وعما أصابه المسلمون هناك من مغانم أعادت الى الأذهان غنائم العرب في بلاد فارس . فقد نالت فتوح فارس مكانة عالية ، ورددت عنها الروايات الشيء الكثير التي تبين دهشة العرب الفاتحين مما وجدوه في ايوان كسرى من طنافس فاخرة وأحجار كريمة ، فضلاً عن الكثير من مظاهر الترف التي لم يألّفوها من قبل في بيئتهم الصحراوية بشبه جزيرة العرب . ولذا كان موقف العرب الفاتحين من كنوز فارس موقف الإعجاب والدهشة في آن واحد .

وأعادت فتوحات موسى بن نصير في الأندلس ، وما حصل عليه من مغانم هناك ، ذكرى تلك الأيام الأولى للفتوح العربية في فارس . اذ وجد الفاتحون في كل مدن الأندلس من مظاهر الفنى والترف ما أدهش العقول ، وجعل الروايات عن تلك المغانم أشبه بالأساطير ، وغطت سحرها وروعتها أنباء المغانم المعاصرة لها في المشرق والتي وقعت في حوزة العرب كذلك أيام فتح فارس . فقالت إحدى الروايات : « لقد كانت الدابة تطلع في غزوات موسى فينظر في حافرها ، فيوجد فيه مسامير الذهب والفضة . »

وترجع كثرة المغانم الى وفرة الثراء الذي تجمع لمدينة القوط ، وخاصة في العاصمة طليطلة . فوجد المسلمون في تلك المدينة بعد فتحها « من الدخائر والأموال ما لا يحصى . فمن ذلك مائة وسبعون تاجاً من الذهب الأحمر ، مرصعة بالدر وأصناف الحجارة الثمينة . ووجد فيها ألف سيف مملوكى ، ووجد فيها من الدر والياقوت أكيال ، ومن أواني الذهب والفضة ما لا يحيط به وصف . »

على أن أعظم غنائم طليطلة كانت « مائدة سليمان » ، وهى بالطبع ليست مائدة سليمان ابن داود عليه السلام ، وإنما نسبتها بعض الروايات الى سليمان كناية عن قدمها وعظم شأنها .

وقد اختلفت الروايات كذلك في وصف هذه المائدة ، وبيان هيئتها وسبب وجودها . فذكرت إحدى الروايات أن الأغنياء والموسرين من القوط دأبوا أن يوصوا للكنائس بقدر معلوم من ثرواتهم عند الوفاة ، وكلما تجمع المال الوفير بيد المشرفين على تلك الكنائس ، أمروا بصناعته موائد وكراسي من الذهب والفضة تضع القساوسة عليها الاناجيل في أيام الاحتفالات ، من أجل المباهاة والتفاخر .

ونالت كنيسة طليطلة قدرا كبيرا من مال الوصايا ، وخاصة أنها كانت مقر البيت المالك . ولذا تأنق الملوك في عمل مائدة لهذه الكنيسة فاقت كل الموائد في سائر كنائس اسبانيا . إذ حرص كل ملك على أن يزيد في مائدة كنيسة طليطلة ، اعلاء لذكره وتباهيا بعاصمة ملكه ، حتى صار لها مركز الصدارة في جميع البلاد ، وتحدث الجميع بجمالها وعلو قيمتها . فكانت « مصنوعة من الذهب الخالص ، مرصعة بفاخر الدر والياقوت والزبرجد ، وقيل أنها من زبرجدة خضراء ، حافتها وأرجلها منها ، وكان لها ثلثمائة وخمسة وستون رجلا . » وأشادت إحدى الروايات بجمال هذه المائدة أيضا ، ووصفتها بأنها « كانت مائدة خوان ، ليست لها أرجل ، قاعدتها منها ، وكانت من ذهب وفضة خليطين ، فهي تتلون صفرة وبياضا ، مطوقة بثلاثة أطواق ، طوق أولو ، وطوق ياقوت ، وطوق من زمرد .

ومهما يكن من أمر تلك الروايات ، ومهما يكن الاختلاف فيما بينها حول وصف تلك المائدة ، فمما لا شك فيه أنها أجمعت على شيء واحد هو عظمة هذا الكنز الثمين ، الذي فاقت أخباره ما عداه من كنوز وجدها الفاتحون في سائر مدن الأندلس . ويرجح أن هذه المائدة كانت مذبح الكنيسة الجامعة في طليطلة ، وأنها كانت على درجة خيالية من الجمال حتى تليق بعاصمة القوط ، ولتكون رمزا على ثراء دولتهم وفسادها الوافر .

والى جانب غنائم طليطلة استمرت الروايات فى فيض أخبارها عن كنوز الأندلس . فأشارت إحدى تلك الروايات الى أن المسلمين حين دخلوا الأندلس مع موسى بن نصير ، أدهشهم ما وجدوه من مغانم ، وأن كثيرا منها وقع فى أيديهم بمحض الصدفة وتقدير المقادير . ففى إحدى المدن أراد الجند ضرب أوتاد فى حائط إحدى المباني لخيولهم ، فلم تندفع الأوتاد . وسرعان ما أذهلهم أن السبب فى ذلك هو وجود صفائح من الذهب والفضة خلف بلاط الرخام فى الجدران . ومن ثم وقع فى يد الجند هذا الكنز الثمين .

وذكرت رواية أخرى أن رجلا جاء الى موسى بن نصير وقال له : ابعث الى نفرا من رجالك لأدلهما على كنز ، وأجابه موسى الى طلبه . وعندما وصل الرجال الى المكان ووجدوا الكنز ، وأرادوا رفع الغطاء « سال عليهم من الزبرجد والياقوت ما لم يروا مثله قط » ، ولم يستطيعوا حمل الكنز ، ورأوا أن موسى ابن نصير لن يصدقهم إذا أخبروه بذلك ، واكتفوا بأن بعثوا فى استدعائه هو شخصيا ليرى الكنز ، وليتلقوا أوامره بشأنه . وعلى هذا النحو سارت القوات الإسلامية فى الأندلس ، وهى تجد من الكنوز والمغانم ما أذهل الرواة ، وأعاد الى ذاكرتهم فتح فارس . ومن أشباه هذه الذكريات ما رددته إحدى الروايات عن أن رجلين من جنود المسلمين فى الأندلس وجدا « طنفسة منسوجة بالذهب والفضة والجوهر والياقوت . قالما أثقلتهما أنزلاها ، ثم حملا عليها بالفأس فقطعاها نصفين ، فأخذا نصفا وتركيا الآخر . » ومن زاد فى العجب والدهشة أن الناس كانوا يمرون يمينا وشمالا فلا يلتفتون الى هذا النصف الغالى من الطنفسة « استفناء عنها بما هو انفس منها وأرفع » .

وهكذا تجمع فى أيدي المسلمين من كنوز الأندلس ومغانمها ما جعل موكب النصر الذى بدأ يعده موسى بن نصير ، وهو فى

طريق العودة الى الشام ، حديث الركبان ، وميدانا خصبا للرواة والقصاص . وكان موسى بن نصير قد أخذ في الاعداد للعودة في أواخر سنة ٩٥ هـ / منتصف صيف سنة ٧١٤ م ، بعد أن انتهى هو وطارق بن زياد من السيطرة على الجهات الجبلية الشمالية من اسبانيا . وحرص موسى بن نصير على أن يجعل موكبه أفخم وأبهى موكب عرفه التاريخ الاسلامي . فضم اليه « أبناء الملوك من الافرنج بالتيجان ، والمائدة والآنية من الذهب والفضة والوصفاء والوصائف ، ومالا يحصى من الجواهر والطرائف . » وكانت المائدة بدورها تحتل مركز الصدارة في موكب النصر ، واحتاجت الى ترتيب خاص لنقلها . وانتقى موسى بن نصير دابة من أجود الدواب ، وأمر بأن تحمل عليها المائدة ، ولكن الدابة ناءت بهذا الحمل الثقيل ، مما اضطر موسى بن نصير الى اعداد العدة لنقل هذا الكنز الثمين وغيره من الكنوز ، وبخاصة أن الطريق أمامه الى دمشق شاق وطويل .

وأمر موسى بن نصير بصناعة « العجل » لنقل كنوز الأندلس ، « فعملت ثلاثة ومائة عجلة ، ثم حمل عليه الذهب والفضة . الجواهر واصناف الوشي الأندلسي » . وسار موسى بن نصير موكب النصر الرائع عائدا من شمال اسبانيا ، فمر بطليطلة سون أن ينتظر بها طويلا ، ثم دخل قرطبة ، ولقى فيها كبار رجال الحامية الاسلامية ، ونظم أحوالها . ثم مضى الى اشبيلية ، وهناك جعل ابنه عبد العزيز واليا على البلاد ، قبل أن يبحر من هذا الميناء ، امعانا منه في ضبط ادارة اسبانيا ، وحرصا على سلامة الجند الاسلامي في هذا القطر النائي .

وأخيرا أبحر موسى بن نصير ، ومعه موكب النصر من اشبيلية في ذي الحجة سنة ٩٥ هـ مكللا بأكاليل المجد والفخار . لقد أدار موسى بن نصير في جهد متصل ، دام أربع سنوات الا شهرا تقريبا أعظم عمليات الفتوح العربية . اذ بدأ الفتح الاسلامي لاسبانيا

في رجب سنة ٩٢ هـ ، وها هو ذا موسى بن نصير يفادر البلاد في ذي الحجة سنة ٩٥ هـ ، اتم خلالها فتح شبه جزيرة ايبيريا ، تلك الجزيرة الكبيرة ، وبسط سلطان المسلمين عاليها من أقصى الجنوب الى جبال البرت وشاطئ البحر في الشمال ، ومن مالقة وطركونة في الشرق الى قلمرية واشبونة في الغرب ، وسيطرت جيوش موسى بن نصير وسط هذا الامتداد الجغرافي الشاسع على سهول الجنوب وعلى مرتفعات قشتاله ونواحي استرامادوره . ولم يترك موسى ابن نصير بلدا كبيرا في اسبانيا او حصنا هاما الا ورفع عليه راية الاسلام ، وضمه الى رقعة الدولة الاسلامية . ان موسى بن نصير ، وهو يفادر اشبيلية اتم فتحا مبينا في مدة قصيرة لا يمكن أن يصدقها العقل لولا ثبوت البراهين وشواهد التاريخ . وترك في اسبانيا ، ذلك القطر الفسيح الذي سبق أن استعصى أمره على كبار الفاتحين القدامى ، ادارة اسلامية ثابتة الأركان ، قوية الأوتاد .

وعبر موسى بن نصير البحر من اشبيلية الى افريقية ، ومعه موكب النصر ، كأنما أراد أن يثبت للبربر ، باصطحابه طارق ابن زياد ، ان لهم قدرا عظيما فيما أفاء الله على الاسلام في غرب أوربا من نصر عظيم . ثم ان موسى حرص على أن يسير الى جانب طارق بن زياد خطوة خطوة الى الشام ليطلع المشرق العربي على صفحات رائعة من أمجاد شقيقه المغرب العربي من أجل نصره الاسلام ورفع رايته . فحياة طارق بن زياد وأعماله في اسبانيا تمثل سرا من أسرار قوة الاسلام ، وناحية من نواحي امتيازه ، وهي كلها أمور استطاع موسى بن نصير أن يتيح لها أسباب المجد والانطلاق . فموسى بن نصير ، هو الذي جعل من أحد أبناء المغرب العربي ، وهو طارق بن زياد « قائدا فاتحا ، وسياسيا محنكا يقود الجيوش ويفتح الأمصار ، ويوقع المعاهدات في قدرة

وكياسة جديرتين بالاعجاب « (١) ، وهيا لهذا القائد المغربي أن يصبح خير طليعة لوطنه وجهاده في سبيل اعزاز الاسلام .

ولم ينس موسى بن نصير وسط زهو النصر تنظيم شئون المغرب كذلك ، وخاصة أنه على وشك السفر الى مكان بعيد عنه في دمشق . فعين ابنه عبد الله على « افريقية » وطنجة والسوس ، حتى يستطيع الاشراف على هذا القطر الشاسع ، ويهيئ للمغرب واسبانيا أسباب التعاون من أجل بناء الحضارة العربية الاسلامية . ذلك أن تشابه الادارة ووضعها بيد أشخاص متفاهمين خير سبيل للاستقرار ، ثم الامتزاج ، وبناء وحدة قوية راسخة الأوتاد مدعمة الكيان .

وازداد موكب النصر بهاء وروعة في القيروان ، اذ ضم موسى ابن نصير اليه مائة رجل من اشرف الناس من قريش والأتصار ، وسائر العرب الذين أسهموا في فتح المغرب ، منهم عياض بن عقبة وعبد الجبار بن أبي سلمه بن عبد الرحمن بن عوف . واصطحب موسى بن نصير أيضا نفرا من كبار رجال البربر ، منهم بنو كسيلة وملك السوس وملك قلعة أرسوف هذا فضلا عن هدايا من خيرات كل بلد من البلاد التي فتحها ، وبعض ما فيها أيضا من تحف وطرائف .

واتجه موسى بن نصير الى مصر ، القاعدة الأولى لفتوح المغرب والأندلس ، والتي تربي فيها عسكريا وسياسيا ، وعاش في كنف واليها عبد العزيز بن مروان ونعم برعايته وحمايته . ولم تنس السلطات العربية في مصر بدورها الترحيب بهذا القائد المظفر ، وبخاصة أن الخليفة الوليد أمر بأن يوضع تحت تصرف موسى ابن نصير كل شيء يطلبه ، ولا يمنع له رجاء طيلة اقامته في البلاد . وعندما اقترب موكب النصر من عاصمة البلاد ، خرج الوالى

(١) حسين مؤنس : فجر الأندلس .

لاستقبال موسى بن نصير ، الذي بدا في أوج مجده وأبهى زينته .
اذ حين اقترب الوالى منه ، قال له موسى : من أنت يا ابن أخى .
فانتسب له الوالى ، على العادة العربية من حيث الاعتزاز بالآباء
والأجداد . وعندئذ قال له موسى بن نصير : مرحبا وأهلا .

وبالغ موسى بن نصير وهو في مصر في اغداق المنح والعطايا
والهدايا على الذين خرجوا لاستقباله من كبار رجال الدولة .
وخص أبناء عبد العزيز بن مروان ، صاحب نعمته بالكرم
الحاتمي . فذهب اليهم بنفسه مسلما ومعتزفا بما سبق ان ناله
من تقدير على يد والدهم ، والى مصر الأسبق . وأقام موسى
« ثلاثة أيام يأتيه أهل مصر في كل يوم ، فلم يبق شريف
الا وقد أوصل اليه موسى صلة ومعروفا كثيرا » . وظلت ذكرى
موكب النصر الذي خرج على رأسه موسى بن نصير عالقة في أذهان
المعاصرين في مصر لمدة طويلة ، ونقلوا الى أعقابهم ما شاهدوه من
روعة هذا الموكب وثرائه العظيم . وغدت هذه الأوصاف مادة
خصبة لخيال القصاص والرواة في مصر لمدة طويلة لدى قرن
تقريبا ، بعد أن غادرها هذا الموكب الحافل .

واتجه موسى بن نصير بعد ذلك نحو فلسطين ، ولقى هناك
الكثير من الترحيب الحار ، والاستقبال الحسن . وممن اشتهر
بالخروج لاستقبال هذا الموكب والحفاوة به آل روح بن زنباغ .
فقد نزل عندهم موسى بن نصير في أثناء اقامته بفلسطين ، وهو
معزز مكرم . فنحروا له خمسين جزورا في يومين ، دلالة على
تقديرهم له ولموكبه . ولم ينس موسى بن نصير بدوره أن يفدق
عليهم الكثير من الهدايا ، وعلى غيرهم من الأسر الكبيرة في
فلسطين . وترك موسى بن نصير نفرا من آل بيته عند أسرة روح
ابن زنباغ استعدادا لدخول دمشق ، وليتفرغ لاعداد موكب
النصر بالصورة التي تليق بعاصمة الخلافة ، وليجعل منه نموذجا

يشهد فيه الناس جهاد المسلمين في المغرب وفي غرب أوربا ،
وما أفاء الله على المسلمين في تلك الجهات من نصر مبين .

وعندما اقترب موكب النصر من دمشق وصل الى موسى
ابن نصير رسالتان كان لهما أكبر الأثر في اختتام حياته فيما بعد .
أما الرسالة الأولى فكانت من ولي العهد سليمان بن عبد الملك يطلب
فيها من موسى بن نصير أن يبطئ في الحضور الى دمشق لأن
ال خليفة الوليد مريض مرض الموت ، وفي أيامه الأخيرة ، وبذلك
يحظى سليمان عندما يعتلى العرش باستقبال أعظم موكب للنصر
عرفه الاسلام . ولكن موسى بن نصير رفض الاستجابة لهذا
الطلب ، وتابع سيره الى دمشق . وبعد ذلك بقليل تسلم الرسالة
الثانية ، وكانت من عند الخليفة الوليد نفسه يأمره فيها بالاسراع
بالحضور الى دمشق حتى لا تحرمه المنية من شرف مشاهدة موكب
النصر القادم على عاصمة الخلافة ، وليتوج أيامه الأخيرة بهذا
النصر المظفر .

ودخل موكب النصر دمشق في السادس عشر من يناير
سنة ٧١٥ م ، أى قبل وفاة الخليفة الوليد بأربعين يوما ، وأذهل
الناس بما حمله من الخيرات والمغانم . وتحدد يوم الجمعة
لاستقبال الخليفة لهذا الموكب في المسجد . وحرص موسى على أن
يشرف بنفسه على طريقة سير الموكب ، وارتداء المشتركين فيه
لثيابهم ، ولطريقة عرض الكنوز والمغانم . وكان موسى بن نصير
يحب الأبهة والزينة ، حتى أثر عنه أنه كان يستعمل الخضاب
للحيته البيضاء ، كي يبدو وسيما قسيما بهي الطلعة . فأمر أن
يلبس كل فرد من المشتركين في الموكب من كبار أبناء البلاد الذين
صحبتهم معه الثياب الخاصة بهم ، والتي تمثل أوطانهم . وقد روت
المراجع أنه اصطحب معه من الأندلس وحدها ثلاثين ألف شخص ،
وهذا طبعا عدد مبالغ فيه ، ولا يمكن قبوله ، لاستحالة الإشراف

على مثل هذا العدد الضخم ، وبخاصة عبر طريق طويل وشاق من الأندلس الى دمشق .

والمعقول ، كما أشارت بعض الروايات أيضا ، أن موسى بن نصير اصطحب معه ثلاثين شخصا فقط من كبار رجال دوله القوط ، الى جانب نفر من اشراف البلاد التي دخلها في المغرب . فألبس رجال القوط التيجان ، كما جعلهم يرتدون ثياب الملك ، وكذلك جعل أبناء البربر يلبسون ملابسهم الوطنية الجميلة ، وكذلك أمر أبناء ملوك الجزائر التي استولى عليها في بحر الروم (البحر المتوسط) ، وخاصة أبناء جزر ميورقة ومنورقة ، بأن يلبسوا التيجان وأبهى الثياب . وارتدى اشراف العرب الذين اشتركوا في هذا الموكب أيضا ثيابهم العربية الجميلة ، حتى صار الموكب الذي أعده موسى بن نصير يمثل عرضا تاريخيا رائعا لامتداد الاسلام وسط شعوب وأمم عديدة ، من قلب الجزيرة العربية الى المغرب الأقصى وغرب أوروبا .

وأمر موسى بن نصير « بالأموال والجواهر ، واللؤلؤ والياقوت والزبرجد والجزع والوطاء والكساء المنسوج بالذهب والفضة المحرشة باللؤلؤ والياقوت والزبرجد ، وضمها الى موكب النصر ، مع رجاله بأرديتهم الجميلة المتعددة الزاهية . ثم أقبل موسى بالذين ألبسهم التيجان حتى دخل مسجد دمشق ، والوليد على المنبر يحمد الله » . وكان الخليفة يعاني في تلك الأيام من وطأة مرض الموت ، ومع ذلك أبى إلا أن يخرج الى المسجد « متحملا ، لأجل قدوم موسى ومن معه » .

ولما رأى الخليفة هذا الموكب استولت عليه الدهشة ، والعجب الشديد ، وصاح الحاضرون من الناس هائفين « موسى ، موسى » . وأقبل هذا القائد المظفر حتى سلم على الخليفة ، ووقف الثلاثون رجلا من أصحاب التيجان في موكب النصر عن يمين المنبر وشماله ، على حين وقف أمام الخليفة سائر أفراد الموكب

ومراكب الفنائم . وهز هذا المنظر الباهر قلوب الحاضرين ومشاعرهم ، كما أثار ذكرياتهم عن فتوح المسلمين الكبرى ، وقالوا : أن الدولة الإسلامية لم تشهد منذ فتح فارس مثل هذا الموكب الرائع ، ومثل تلك الفنائم الوافرة .

وأخذ الخليفة الوليد يلقي خطبته في هذا المشهد الحافل ، وأكثر فيها الحمد لله والثناء عليه ، والشكر لما أيدته الله ونصره . وطالت خطبة الخليفة ، ولكن لم يتمكن الحاضرون من سماعها جيدا بسبب مرضه . ومهما يكن من أمر فإن الروايات أجمعت على شدة فرح الخليفة ، وأنه أطل في خطبته ، حتى « فات وقت الجمعة » . ثم صلى بالناس وأدى فريضة هذا اليوم المبارك المشرق في تاريخ العروبة والإسلام .

وجلس الخليفة بعد الصلاة ليستقبل الفاتح المظفر ورجاله . « فلما بموسى فصب عليه الوليد الخلع ثلاث مرات ، وأجازه بخمسين ألف دينار ، وفرض لولده جميعا في الشرف ، وفرض لخمسمائة من مواليه » . وكان هذا التكريم العلني من الخليفة لموسى وآل بيته اعترافا رسميا بما قدمه هذا القائد وأبناؤه من خدمات جليلة للدولة العربية الإسلامية . ثم أن اغداق الخلع على موسى ثلاث مرات كان تشريفا لم يحظ به قائد من قادة الفتوح ، وبخاصة في الدولة الأموية . وفي الوقت نفسه لم يكن في هذا العمل من جانب الخلافة أي استثناء أو مبالغة لا يستحقها موسى بن نصير . إذ تمكن هذا القائد وأبناؤه من رفع راية الجهاد ، ونشر الإسلام في رقعة شاسعة ، امتدت من حدود مصر شرقا إلى المغرب الأقصى ، ثم إلى أرجاء غرب أوروبا ، دون أن يتعرض المسلمون لأي خطر أو كوارث . فكان موسى ابن نصير يتقدم الصفوف ، ولا يضمن بولده في الحروب ، حتى كتب لآل بيته صفحة مجيدة في تاريخ الفن الحربي الإسلامي ، وتطوره في القرن الأول الهجري .

ولما انتهى الخليفة من منح موسى براءات الشرف والتكريم ، استأذن منه هذا القائد العظيم في تقديم المشتركين معه في موكب النصر . فأدخل عليه « موسى ملوك البربر وملوك الروم وملوك الاسبان وملوك افرنجة . ثم أدخل عليه رؤوس البلاد ممن كان معه من قريش والعرب . » فأحسن الخليفة لهم العطايا والمنح ، و « فرض لهم في الشرف » . وهذه العبارة الأخيرة تحمل معنى يشبه في لغة « البروتوكول في العصر الحاضر » المكانة الممتازة في المجتمع . فكان من أهم مميزات « من فرض له في الشرف » ، ألا يقوم من مجلسه اذا دخل عليه أحد من الحكام ، دلالة على علو مكانته الاجتماعية ، واحتراما له من قبل السلاطات الحاكمة أمام الناس .

وبانتهاء يوم الاستقبال اختتم موسى بن نصير حياته العامة ، ذلك أن الوليد بن عبد الملك توفي بعد ذلك اليوم بأربعين يوما فقط ، وخلفه سليمان بن عبد الملك سنة ٩٦ هـ / ٧١٥ م . وأعفى الخليفة الجديد ، غداة توليه العرش موسى بن نصير ، وكان اذ ذاك قد ناهز الثمانين من عمره من العودة الى الأندلس . وظل سليمان مع ذلك حريصا على الافادة من خبرة موسى بن نصير الحربية ، واعتبره من كبار مستشاري الدولة الاسلامية . فعندما صمم هذا الخليفة على ارسال حملة لحصار القسطنطينية بقيادة أخيه مسلمة سنة ٩٨ هـ / ٧١٧ م دعا موسى بن نصير لاستطلاع رأيه ، وقال له : أشر على يا موسى ، فلم تزل مبارك الغزوة في سبيل الله ، بعيد الأثر طويل الجهاد . فقال موسى : أرى يا أمير المؤمنين أن يعمد مسلمة الى جيشه فيقسمه قسمين ، يخصص أحدهما لحراسة المعقل التي يستولى عليها في طريقه للقسطنطينية ، ويكرس القسم الثاني لحصار عاصمة الروم ، وبذلك يأمن عادية الطريق ، أو التعرض للهجمات الفجائية .

وحرص الخليفة سليمان أيضا على أن يقضى مع موسى الساعات الطوال يسأله عن أحوال الجهات الغربية من الدولة ، وما شاهده من أحوال سكانها . وقد دارت بينهما هذه المناقشة الطريفة :

قال الخليفة : يا موسى أخبرنى عن الروم ؟ .

قال موسى : أسود فى حصونهم ، عقب على خيولهم ، نساء فى مواكبهم ، لا يرون عارا فى هزيمة تكون لهم منجاة .

قال الخليفة : أخبرنى عن البربر ؟ .

قال موسى : هم يا أمير المؤمنين أشبه العجم بالعرب ، لقاء نجدة وصبرا وفروسية وسماحة وبادية .

قال الخليفة : أخبرنى عن الاسبان ؟ .

قال موسى : ملوك مترفون ، وفرسان لا يجبنون .

قال الخليفة : أخبرنى عن الافرنج ؟ .

قال موسى : هناك يا أمير المؤمنين العدد والعدة ، والجلد والشدة ، وبين ذلك أمم كثيرة ... وكل قد لقيت بشكله ، فمنهم المصالح ، ومنهم المحارب المقهور ، والعزیز البدوخ .

وأراد الخليفة سليمان أن يختم حياته بالحج الى بيت الله الحرام ، واصطحب معه الى مكة والمدينة المنورة موسى بن نصير ، وظلا طوال الطريق يتشاوران فى مهام الدولة ويتدارسان أحوالها . وفى أرض الحجاز بدأت الذكريات تلاحق موسى بن نصير ، وتعيد اليه صورة الماضى المجيد فى أرض المغرب والأندلس . وتذكر موسى ضمن ما تذكره من أحداث هذه الأيام الحافلة حادثة

وقعت له ، عقب فتح إحدى المدن الآسيائية . أن علم إذ ذاك أن
من بين أسرى القوط شخص له علم بالنجوم . فاستدعاه موسى ،
وكان اسمه عصفور مذبح ، فأدخل الرجل يده في جوف العصفور ،
وحركه طويلا ، ثم قال للترجمان بلسانه ؟ انه لن يموت هنا ولكن
يموت بالشرق ، في بلاد العرب . وأمر موسى بطرد ذلك الأسير . ولكنه
الآن ، وهو في المدينة المنورة ، تذكر تلك الحادثة ، وأحس بدنو
أجله ، وقال موسى لبعض من يثق به : ليموتن بعد يومين رجل
بلغ ذكره المشرق والمغرب ، وظن السامع انه يعنى الخليفة . ولكن
لم يلبث السامع أن وصلت الى آذانه ضجة عالية انطلقت من
مسجد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم - والناس يقولون :
مات موسى بن نصير .

وهكذا شاءت الأقدار أن تتحقق نبوءة أسير القوط ، ودفن
موسى بن نصير في مسقط رأسه في « وادي القرى » ، بعد أن قطع
رحلة الحياة ، ربط فيها المشرق العربي بالمغرب العربي ، وخلف
للأمة العربية وطنا شاسعا ، شامخ البناء .

المراجع

- ابن الأثير : الكامل في التاريخ (بولاق) .
- أسد الغابة (١٢٨٠ هـ) .
- أرسـلان : الحل السندسية (١٩٣٦) .
- البكري : المغرب في ذكر افريقية والمغرب (١٩١١) .
- البلاذري : فتوح البلدان (١٩٠٠) .
- حسن حسني : جزيرة قوصرة (المجلة التاريخية ١٩٤٦) .
- حسن محمود : قيام دلة المرابطين (١٩٥٧) .
- حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب (١٩٤٧) .
- فجر الاندلس (١٩٥٩) .
- سعد زغلول
عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي (١٩٦٥) .
- السلوى : الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى (١٨٠٤) .
- السيد عبد العزيز
مسالم : المغرب الكبير (العصر الاسلامي) - (١٩٦٦) .
- الضبي : بغية الملتبس في تاريخ رجال الاندلس (١٨٨٤) .
- ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب (ليدن ١٩٢٠) .
- ابن عبد ربه : العقد الفريد .

- عبد العزيز
حافظ دنيس : { موسى بن نصير (الدار القومية) .
- العدوى : الاساطيل العربية (١٩٥٧) .
- ابن عذارى : البيان المغرب في اخبار المغرب (ليدن) .
- عنان : دولة الاسلام في الاندلس (١٩٤٣) .
- الاثار الاندلسية (١٩٥٦) .
- ابن قتيبة : الامامة والسياسة (١٩٠٤) .
- الكندى : ولاية مصر وقضااتها (ليدن) .
- المالكي : رياض النفوس (نشرة حسين مؤنس) .
- محمد علي دبوؤ : تاريخ المغرب الكبير .
- محمد عبدالقنى حسن : موسى بن نصير .
- أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (١٩٢٨) .
- المقرئ : نفع الطيب من فحسن الاندلس الرطيب (١٨٥٥) .
- النويرى : نهاية الأرب .
- ياقوت : معجم البلدان .

الفهرس

صفحة

٥	• • •	الفصل الأول : مؤهلات القادة العرب
١٣	• • •	الفصل الثانى : أيام الصبا والشباب
٢٥	• • •	الفصل الثالث : التأهيل للميدان الافريقى
٣٣	• • • • •	الفصل الرابع : أمير القيروان
٥١	• • •	الفصل الخامس : الجناح الأيسر للإسلام
٦٣	• • • • •	الفصل السادس : نافذة على الأندلس
٧٥	• • • • •	الفصل السابع : القيادة الجماعية
٩١	• • • • •	الفصل الثامن : أستاذ الفن الحربى
١١٣	• • • • •	الفصل التاسع : موكب النصر
١٣٩	• • • • •	المراجع

صدر من سلسلة أعلام العرب

المؤلف	اسم الكتاب
عباس العقاد	١ - محمد عبده
علي أدهم	٢ - المعتمد بن عباد
د . زكي نجيب محمود	٣ - جابر بن حيان
د . علي عبد الواحد وافي	٤ - عبد الرحمن بن خلدون
د . محمد يوسف موسى	٥ - ابن تيمية
ابراهيم الابياري	٦ - معاوية
د . محمد أحمد الحفني	٧ - سيد درويش
د . أحمد بدوي	٨ - عبد القاهر الجرجاني
د . علي الحديدي	٩ - عبد الله النديم
د . ضياء الدين الريس	١٠ - عبد الملك بن مروان
أمين الخولي	١١ - مالك
د . عبد اللطيف حمزة	١٢ - القلقشندي
د . أحمد محمد الحوفي	١٣ - الطبري
د . سعيد عبد الفتاح عاشور	١٤ - الظاهر بيبرس
د . محمد مصطفى حلمي	١٥ - ابن الفارض
د . علي حسني الخريوطي	١٦ - المختار الثقفى
د . سيدة اسماعيل الكاشف	١٧ - الوليد بن عبد الملك
د . أحمد كمال زكي	١٨ - الأصمعي
صبرى أبو المجد	١٩ - زكريا أحمد
د . ماهر حسن فهمي	٢٠ - قاسم أمين
أحمد الشرباصي	٢١ - شكيب أرسلان
د . عبد الحميد سند الجندى	٢٢ - ابن قتيبة
محمد عجاج الخطيب	٢٣ - أبو هريرة
د . جمال الدين الرمادي	٢٤ - عبد العزيز البشري
محمد جابر الحيني	٢٥ - الخنساء
د . أحمد فؤاد الامواني	٢٦ - الكندي
د . بدوي طبانه	٢٧ - صاحب بن عباد
د . محمد عبد العزيز مرزوق	٢٨ - الناصر بن قلاوون
أنور الجندى	٢٩ - أحمد زكي
د . سيد حنفي حسني	٣٠ - حسان بن ثابت
عقيد محمد فرج	٣١ - المثني بن حارثه الشيباني

- ٢٢ - مظفر الدين كوكبوري ... عبد القادر احمد
- ٢٣ - رشيد رضا ... د . ابراهيم احمد العدوي
- ٢٤ - اسحاق الموصلي ... د . محمود احمد الحفنى
- ٢٥ - ابو حيان التوحيدى ... د . زكريا ابراهيم
- ٢٦ - ابن المعتز العباسى ... د . احمد كمال زكى
- ٢٧ - الزهاوى ... د . ماهر حسن فهمى
- ٢٨ - ابو العلاء المعرى ... د . عائشة عبد الرحمن
- ٢٩ - احمد لطفى السيد ... د . حسين فوزى النجار
- ٤٠ - الجوينى امام الحرمين ... د . فوقيه حسين
- ٤١ - صلاح الدين الايوبى ... د . سعيد عبد الفتاح عاشور
- ٤٢ - عبد الله فكرى ... محمد عبد الفنى حسن
- ٤٣ - عبد الله بن الزبير ... د . على حسنى الخربوطلى
- ٤٤ - عبد العزيز جاويز ... انور الجندى
- ٤٥ - ابن رشيد القيروانى ... عبد الرؤوف مخلوف
- ٤٦ - محمد عبد الملك الزيات ... محمود خالد الهجرسى
- ٤٧ - حنفى ناصف ... محمود فنيهم
- ٤٨ - احمد بن طولون ... د . سيدة اسماعيل الكاشف
- ٤٩ - محمود حمدي الفلكى ... احمد سعيد الدمرداش
- ٥٠ - احمد فارس الشدياق ... محمد عبد الفنى حسن
- ٥١ - المهدي العباسى ... د . على حسنى الخربوطلى
- ٥٢ - الاشرف قانصوه الغورى ... د . محمود رزق سليم
- ٥٣ - رفاعه الطهطاوى ... د . حسين فوزى النجار
- ٥٤ - زرياب ... د . محمود احمد الحفنى
- ٥٥ - الكندى « المؤرخ » ... د . حسن احمد محمود
- ٥٦ - ابن حزم الاندلسى ... د . زكريا ابراهيم
- ٥٧ - ابن النفيس ... د . بول غليونجى
- ٥٨ - السيد احمد البدوى ... د . سعيد عبد الفتاح عاشور
- ٥٩ - المامون ... د . محمد مصطفى هداره
- ٦٠ - المقبرى ... محمد عبد الفنى حسن
- ٦١ - جمال الدين الافغانى ... عبد الرحمن الراعى
- ٦٢ - الجاحظ ... د . احمد كمال زكى
- ٦٣ - ابن ماجه ... د . انور عبد العظيم
- ٦٤ - محمد توفيق الكرى ... د . ماهر حسن فهمى
- ٦٥ - محمود ... د . على محمد الحديدى
- ٦٦ - ابن زيدون ... د . على عبد العظيم
- ٦٧ - ابن حزم ... د . عبد العزيز محمد الشناوى
- ٦٨ - موسى بن عيسى ... د . ابراهيم احمد العدوي

General Organization Of the Alexand

City Library (G.O.A.L.)

Bibliotheca Alexandrina

المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والنشر

تقدم في أول أكتوبر

العدد التاسع والثلاثون

• رتبة جديدة إلى آفاق رائدة

• أول مجلة بيبلوجرافية في العالم العربي

• تحوى فهراس بيبلوجرافية لاغنى عنها للدارسين

• تعرض الكتب الجديدة في مصر والعالم

• تدرس حركة النشر والتأليف في العالم العربي

• يشترك في تحريرها أساتذة علم المكتبات

• تصدر فصلية كل ثلاثة أشهر

في ثوبها الجديد

تطلب من مكتبات الشركة القومية للتوزيع

العدد التاسع والثلاثون
أكتوبر